

مطبوعات برنامج إعداد المفسِّر (٩)

أساليب التفسير

تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري

أساليب التفسير

الطبعة الأولى

رجب ١٤٣٨هـ





0505941199

www.afaqattaiseer.com







أساليب التفسير

تأليف

عبد العزيز بن داخل المطيري






بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الأول: مقدمات في أساليب التفسير

تمهيد

الحمد لله الذي جعل كتابه الكريم هدى للناس في جميع شؤونهم، وحاكماً على أحوالهم وأعمالهم، وقائداً لمن اتّبعه إلى أرشد الأمور، يتبصّرون ببصائره، ويهتدون بهداه، ويفرّقون به بين الحقّ والباطل، ويجدون فيه تبيان كلّ شيء؛ فهو دليلٌ للعقول، وموعظة للقلوب، وزكاة للنفوس، ومنهلٌ للعلم والحكمة، لا يُحاط بعلمه ولا تنقضي عجائبه.

والصلاة والسلام على رسوله الأمين، الذي بلّغ البلاغ المبين، وبيّن كتاب ربّه أحسن التبيين، حتى استقامت الملّة، وقامت الحجّة، واستنار الطريق للسالكين؛ فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من رحمة الله تعالى أن يسّر القرآن للذكر، وقرّبه للناس يقرأه كبيرهم وصغيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وعربيهم وأعجميهم، ويقرأه العالم المتبحّر في العلوم، والعالم المتخصص في علم من العلوم، وطالب العلم، وطالب الحكمة، وطالب زكاة النفس، وطالب المخرج من ظلمة تعتريه، وأزمة يعانيها، وبلاء نزل به.

ويقرأه العامّي الذي لا يدرك كثيراً من المعاني، ويقرأه من يتتعتع فيه وهو عليه شاق.

ويقرأه من يريد الدعوة إلى الله تعالى وتبليغ معانيه لمن يدعوهم على اختلاف مذاهبهم، وتنوّع مطالبهم؛ فيجد كلّ أولئك فيه ما يكفيهم ويغنيهم إذا صدقوا وأحسنوا.

والناس وإن تنوّعت حاجاتهم فإن كفاياتهم تتنوّع كذلك، وقد جعل الله تعالى لكلّ شيء قدراً.

فالقرآن كتاب هداية، ولذلك أنزل، كما قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾.

وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٦﴾.

وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وهذه الهدايات تتنوّع إلى أنواع، لتنوّع حاجات الناس ومعارفهم ومطالبهم، وفي هذا التنوّع حكمة بالغة، وآيات باهرة، تدلّ على بديع حكمة الله تعالى، وإحاطته بكلّ شيء رحمة وعلماً.

ومن أَجْلِ ذلك تنوّعت عنايات العلماء بالقرآن الكريم رواية ودراية ورعاية، وتنوعت عنايتهم في تفسيره وعلومه، وتنوّعت أساليبهم كذلك في تبليغ معانيه، وبيان هداياته.

معنى أساليب التفسير

والمقصود بأساليب التفسير هنا: طرق تبليغ معاني القرآن للمتلقّين وتقريبها لهم بما يناسب حال المخاطَبين ومقامَ الحَديث.

وذلك أن طالب العلم إذا أحسن دراسة مسائل التفسير، ومسائل أصول التفسير وعلوم القرآن، وعرف كيف يحسن تلخيص دروس التفسير ويحرر الأقوال فيها فإنه يحتاج بعد ذلك إلى أن يلقي مادة التفسير إلى المتلقين إلقاءً مكتوباً أو مسموعاً أو مرئياً؛ ويحتاج إلى تجويد طريقة تبليغه لمعاني القرآن؛ ولذلك كان من أهمّ ما يحتاج إليه أن يتعرّف الأسلوبَ الأمثل لإلقاء تلك المادة العلمية.

وتحديد الأسلوب يترتّب عليه تصفية تلك المسائل وتهذيبها والإضافة عليها وتحسين طريقة عرضها بما يناسب الأسلوب الذي اختاره؛ لتكون كلمته أقرب إلى القبول والتأثير ونفع المتلقّين.

فوائد التعرف على أساليب التفسير

والتعرف على أساليب العلماء في التفسير يفيد طالب العلم بفوائد عزيزة منها:

١: أن يعرف أن للتفسير مقامات وأساليب، ولكلّ مقام أسلوبه الذي يلائمه.

٢: أن يتعرّف على النماذج الحسنة في كلّ أسلوب، ليجتهد في تدريب نفسه على الأخذ بأحسنها، والاقتباس من طريقة العلماء فيها، ومحاولة محاكاتها.

٣: أن يستكشف جوانب الإحسان لديه؛ فإنّ لدى كل طالب علم ما أنعم الله به عليه من الملَكات العلمية والقدرات الذهنية والمعرفية؛ فإذا عرف الأسلوب الذي يحسنه ويبرع في محاكاته وتحسينه؛ فقد انفتح له باب عظيم من أبواب الدعوة إلى الله تعالى وتعليم العلم النافع؛ فيجتهد في العناية بهذا الأسلوب وتجويده وتحسينه وإعداد الدروس والكلمات التفسيرية به، وذلك من شكر الله تعالى على ما أنعم به عليه، وقد وعد الله الشاكرين بالمزيد.

٤: أن يحاول طالب العلم تدريب نفسه على تنويع الأساليب في التفسير بحسب ما يقتضيه المقام وحال المخاطبين، وأن يحرص على اجتياز الحدّ الأدنى في كل أسلوب بتطبيق نماذج منه يقوّمها له عارفٌ بالتفسير وأساليبه؛ ثم يجتهد في الأسلوب الذي يرى أنه قد فُتح له فيه.

٥: بيان هذه الأساليب ووضع المعايير المعينة على تحقيق الجودة العلمية فيها يعين - بإذن الله تعالى - على تأهيل عدد من طلاب العلم يحسنون إعداد الكلمات التفسيرية والمقالات التفسيرية، والدعوة إلى الله تعالى بتبليغ معاني القرآن وبيان الهدى للناس انطلاقا من هدي القرآن الحكيم.

٦: معرفة طالب العلم بالأسلوب الذي يناسبه في التفسير له أثر كبير على بنائه العلمي؛ فيدعوه ذلك إلى أن يحسن البناء العلمي واستعمال الأدوات المعرفية بما يخدم ذلك الأسلوب على وجه الخصوص؛ ليكون بناؤه العلمي أحسن وأنفع.

أنواع أساليب التفسير:

يمكن تقسيم أساليب العلماء في تفسير القرآن إلى الأنواع التالية:

النوع الأول: أسلوب التقرير العلمي، وهو أسلوب قائم على إرادة تحرير المسائل العلمية وبيانها بأدلتها.

والنوع الثاني: الأسلوب الوعظي، وعمدته على التبصير بالهدى والترغيب والترهيب، وإرادة التأثير على النفوس بخطاب الوعظ.

والنوع الثالث: الأسلوب الاستنتاجي، وعمدته على استنباط الفوائد والأحكام واستخراجها.

والنوع الرابع: أسلوب الحِجَاج الشرعي، وهو أسلوب يراد به الانتصار للحق، وبيان أوجه الردود على المخالفين، ودلالة القرآن على ما يحقّ به الحق، ويتبيّن به بطلان الباطل.

والنوع الخامس: الأسلوب البياني، وهو أسلوب قائم على الكشف عن حسن بيان القرآن، ولطائف دلالة الألفاظ على المعاني الجليلة، وأسرار اختيار بعض الألفاظ والتراكيب على بعض.

والنوع السادس: الأسلوب المقاصدي، وهو قائم على بيان مقاصد الآيات وهداياتها، وتحرير موافقتها لمقاصد القرآن العامة.

وهذه الأنواع استخرجتُها باستقراء الرسائل التفسيرية، وسَبْرِ أساليب العلماء فيها، وتأمّل مقاصدها، وأدواتها العلمية، ولغة الخطاب في تلك الرسائل، وتصنيفها إلى أصناف، وربّما فاتني شيء منها، لكنّي أرجو أني قد ذكرت المهمّ منها، ونبّهت بما ذكرتُ على ما تركتُ؛ لأن الغرض بيان

الفكرة وتوضيحها بالأمثلة، وينبغي أن لا نتوقف كثيراً عند حدود الأسماء والمصطلحات إذا اتّضح المراد، لأن المقصود تحصيل الثمرة المرجوة وهي إحسان إعداد دروس التفسير وإحسان تبليغها للمتلقّين.

وموضوع هذه الدورة العلمية هو في التعريف بهذه الأساليب، وبيان عناية العلماء بها، والتعريف بالأدوات العلمية التي يستعملها العلماء في كلّ أسلوب منها، وبيان طرق تحسين تلك الأساليب، وذكر أمثلة من رسائل أهل العلم في التفسير بتلك الأساليب، واقتراح تطبيقات يؤدّيها الطالب لكلّ أسلوب من أساليب التفسير.

تداخل الأساليب

الغرض من بيان أنواع الأساليب والنصّ على ما شاع منها في كلام المفسّرين في رسائلهم التفسيرية خصوصاً وفي كتب التفسير، إنما هو لأجل إبراز تلك الأساليب والتعريف بها وبيان سِماتها ومقاصدها وما يعين على الإحسان فيها.

ولا يقتضي هذا التنويع خلوّ كل نوع منها من شوائب سمات الأنواع الأخرى؛ فهي أساليب متكاملة لا متزايلة، ومقتبسة من مشكاة واحدة، ويسعى أصحابها إلى غاية واحدة؛ وإنما يكون التصنيف على ما يغلب من أسلوب الرسالة التفسيرية، وقد يجمع المفسّر بين أسلوبين أو أكثر؛ فيميّز ذلك طالب العلم، ويعرفه ولا يتحيّر فيه.

فالأسلوب الوعظي القائم على أصول علمية صحيحة لا بدّ أن يظهر فيه شيء من أثر أسلوب التقرير العلمي، لكن تظل الصبغة الظاهرة على الأسلوب هي الصبغة الوعظية.

وكذلك يقال في الأساليب الأخرى؛ فالعبرة في التصنيف بما يغلب على أسلوب المفسّر، وقد يجمع المفسّر بين أسلوبين جمعاً ظاهراً يصعب معه تصنيفه إلى أحدهما.

ومقصود دراسة أساليب التفسير إنما هو التعرّف على هذه الأساليب ليعرف الطالب ما يلائمه منها، وليجتهد في تحسينه.

الفرق بين مناهج المفسرين وأساليب التفسير

من المهمّ التنبيه على الفرق بين مناهج المفسّرين وأساليب التفسير؛ فمنهج المفسّر أعمّ من حيث تناوله لطريقة المفسّر وأصوله في الاستمداد المعرفي ونوع العناية العلمية، وطريقته في استخراج المسائل ودراستها وعرضها؛ وقد تكون له اختيارات خاصة وخطّة يختطّها لنفسه في دراسة مسائل التفسير تُعرَف بنصّه على ذلك أو باستقراء تفسيره.

وأمّا أسلوب التفسير فهو الطريقة التي تُلقى بها المادّة العلمية للمتلقّي، والقالَب الذي يُخرجها المفسّرُ به.

سبب العناية بالرسائل التفسيرية

لجماعةٍ من المفسّرين رسائلُ تفسيرية مفردة في تفسير بعض الآيات أو السور، وفي تلك الرسائل مجالٌ رَحْبٌ لبيانِ مسائل التفسير، وهداياتِ القرآن وفيها متنفَّس للإطناب في البيان، وجريان القلم بما في ذهن المفسّر مما له صلة بالآيات التي يفسّرها، وفيها متّسع لتنوّع أساليب التفسير، والتفنّن فيها بما يناسب أنواعاً من المخاطَبين، وهذا مما يشقّ التزامُه في التفاسير التامّة لِسُوَرِ القرآنِ الكريم.

وكثير من الأئمة البارعين في التفسير ليس لهم تفاسير مؤلفة، وإنما ظهر لنا علمهم في التفسير بما كتبوه من الرسائل التفسيرية التي تدل على سعة اطلاعهم وحسن معرفتهم وجودة تحريرهم لمسائل التفسير وإحسان عرضها.

وتنوّع أساليب التفسير في تلك الرسائل أظهر منه في كتب التفسير التي تكون موجّهة غالباً لطلاب العلم والعلماء، والتفاسير المختصرة المؤلفة للعامّة لا يتّسع المجال فيها لإبراز المعاني ومخاطبة المتلقّي بما يُروي غليله.

ومخاطبة العامة وطلاب العلم بما يشفيهم ويكفيهم من بيان هدى القرآن مطلب مهمّ، وقد كان ذلك من هدي السلف الصالح رضي الله عنهم؛ فهذا ترجمان القرآن وإمام المفسّرين ابن عباس رضي الله عنه كان يفسّر القرآن للناس في الموسم تفسيراً حسناً يأخذ بمجامع القلوب ويستأثر بالأسماع ويشفي العليل ويروي الغليل، حتى قيل فيه:

إذا قال لم يترك مقالا لقائل ... **بملتقطات لا ترى بينها فصلا**
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع ... **لذي إربة في القول جدّا ولا هزلا**

وقد قال أبو وائل شقيق بن سلمة: (حججت أنا وصاحبٌ لي، وابنُ عباس على الحجّ، فجعل يقرأ سورة النور ويفسّرها؛ فقال صاحبي: «**يا سبحان الله، ماذا يخرج من رأسِ هذا الرجل، لو سمعت هذا التركُ لأسلمت**»). رواه الحاكم في "المستدرك" وصححه.

والمقصود أنه ينبغي لطالب العلم إذا تكلّم في مسألة من مسائل العلم أن يبيّن الهدى فيها بما يشفي ويكفي؛ فإذا كان في مقام وعظٍ أحسنَ الموعظة، وإذا كان في مقامِ تعليمٍ أحسنَ التعليم، وإذا كان في مقام مناظَرة وردٍّ على

مُبطِلٍ ونصرة للشريعة أحسن النصرة وأحسن الذبّ عن الشريعة ودمغ الباطل، وقرَّر الحقّ تقريراً حسناً.

وهكذا في سائر المقامات التي يُحتاج فيها إلى من يبيّن للناس ما يحتاجون إليه من الهدى.

وسبيل التأهل لهذه المرتبة يتطلّب ثلاثة أمور مهمّة:

الأمر الأول: العناية بالتحرير العلمي للمسائل؛ فإنّه يُكسِب الطالبَ حُسْنَ الإلمام بما قيل في المسألة، ويعينه على الجمع بين الأقوال الصحيحة، وترجيح الراجح، وردّ الضعيفِ، تزييف الباطل، والتنبيه على العلّة، وكشف الشبهة، وبيان المُشْكِل، حتى يُمكنه أن يعرض المسألة على المتلقّي عرضاً حسناً.

وإذا أهمل طالب العلم التدرّب على التحرير العلمي فاته خيرٌ كثير، والطالب الذي يقنع بخلاصة ما قيل في المسألة، ولا يحرّر القول فيها، ولا يتعرّف مآخذ الأقوال وعللها، وطرق استخراج المسائل والمرجّحات يفوته التحقيق في كثير من المسائل إذا كان هذا دأبه، وتضعف لديه ملكة التحرير العلمي.

وأمّا الذي يُعنى بتحرير المسائل ويجتهد في معرفة أصولها، ونشأة الأقوال فيها، وحجّة كل قول، وطرق النقد والإعلال، والجمع والترجيح؛ فإنّه يكتسب بهذا التمرّن فوائد جليلة من حسن الفهم وسعة الأفق في العلم الذي يدرسه، وتقوى لديه مَلَكَةُ التحرير العلمي، والقدرة على عرض المسألة بأساليب متنوّعة.

ولذلك أرى أنّه من الخطأ الشائع لدى كثير من طلاب العلم ضعفُ العنايةِ بتحرير المسائل، والاكتفاءُ بخلاصة ما قيل فيها؛ فيكون الطالبُ مقلّداً لمن رجّح واختصر، وهو لا يعرف ما بنى عليه ترجيحه، ولا مصادره التي اختصر منها بحثَه للمسألة.

الأمر الثاني: البناء العلمي الحسن، فإنّ طالب العلم في حديثه عن مسألة من مسائل التفسير لا بدّ أن يجرّه الحديث إلى مسائل متنوّعة في علوم متعدّدة؛ منها مسائل من علوم الآية كالقراءات الواردة فيها والوقف والابتداء وعدّ الآي وسبب النزول وغير ذلك من العلوم التي ينبغي لطالب العلم أن يمرّن نفسه على سرعة الوصول إلى مصادرها وحسن الإفادة منها وطرق استعمالها في كتاباته في التفسير.

وقد يجرّه الحديث إلى مسائل في علوم أخرى كالعقيدة والسلوك والفقه وأصوله والنحو والصرف والاشتقاق والبلاغة والمفردات اللغوية، وغيرها من العلوم التي ينبغي لطالب التفسير أن يجتاز فيها مرحلة المبتدئين على الحدّ الأدنى، وأن يتعلّم طرق البحث في مسائلها ويتعرّف مصادرها حتى يكتسب سرعة الوصول إلى المعلومة التي يريد البحث عنها.

وضعف العناية بالبناءِ العلمي يظهرُ أثرُه على الطالب، وقد يجرّه إلى الوقوع في أخطاءٍ علمية فادحة.

الأمر الثالث: مهارة النشر العلمي، وإتقان الأسلوب الذي يناسبه ويجد من نفسه إمكان البراعة فيه، وهذا هو مقصود هذه الدروس؛ فإنّ العطاء ثمرة البناء العلمي، والثمرة الحسنة لا تكون إلا بنبات حسن.

ومعرفة طالب علم التفسير بالأسلوب الذي له فيه نوع إجادة وإحسان تعينه على سلوك السبيل الذي ينبغي له أن يسلكه حتى ينشر علمه، وينتفع الناس به بإذن الله، وقيمة كلّ امرئ ما يحسنه.



الباب الثاني: أسلوب التقرير العلمي

الأسلوب العلمي هو أصل أساليب التفسير، وأكثرها شيوعاً في رسائل التفسير وكتب المفسّرين، وعناية أهل العلم به ظاهرة بيّنة، وهو الأسلوب الأليق بمقام التعليم، ومخاطبة طلاب العلم ومن له حظ من المعرفة والنظر في الأدلة وأوجه الاستدلالات.

وهذا الأسلوب قائم على إحسان تحرير المسائل العلمية في الآيات المفسَّرة، وإحسان عرضها للمتلقي بأسلوب علمي صحيح.

ولذلك فإنه يستدعي حسن الإلمام بأصول التفسير وطرق استخراج المسائل التفسيرية وتحرير أقوال العلماء فيها وبيان حججها وعللها وإعمال قواعد الجمع والترجيح، والنقد والإعلال، وغير ذلك من الأدوات العلمية التي يحتاج إليها المفسّر.

لغة الخطاب في أسلوب التقرير العلمي:

المخاطَبون بهذا الأسلوب عامّتهم من أهل العلم وطلابه، ومِن فِقْه المتحدّث وحكمته أن يحدّث كلّ فئة بما يناسبها من الأسلوب ولغة الخطاب ومقام الحديث؛ فلذلك ينبغي أن تكون لغةُ الخطاب في هذا الأسلوب لغةً علميةً رصينةً محررةً، وأن يستوفي المفسّرُ المسائلَ التفسيريةَ استيفاء حسناً بحسب وُسْعه وما يحتمله المقام.

وأن يحرص على التثبّت في حكاية الأقوال ونقل كلام أهل العلم، وأن يحسن الفهم، ويؤصّل البحث، ويقرّب الفائدة العلمية لطلاب العلم، وأن يجتنب الحدّة والتشنيع في المسائل الاجتهادية، وأن يحذر من العجلة في إطلاق الأحكام بما يبدر إلى ذهنه قبل التحقق من صحة ما يكتب، وأن يتجنّب التوسّع في الدعوى بما لا يمكنه إقامة الدليل عليه.

تنوّع المسائل العلمية في التفسير

علم التفسير أوسع العلوم وأجمعها؛ ولذلك تتنوّع المسائل التفسيرية فيه إلى أنواع متعددة:

- **فمنها** مسائل متعلقة بعلوم الآية التي يفسّرها كقراءاتها ومقاصدها وسبب نزولها.

- **ومنها** مسائل متعلقة بمعاني مفردات الآيات ودلالات الأساليب والتراكيب.

- **ومنها** مسائل متعلقة بتعيين المراد ببعض الألفاظ العامة والمجملة كتعيين المبهم، وتسمية المضمر، وتبيين المجمل، وتقييد المطلق.

- **ومنها** مسائل متعلقة بفقه أحكام الآية، ومسائل متعلقة بالعقيدة، وأخرى بعلم السلوك وبيان هدايات الآية إلى غير ذلك من أنواع المسائل التفسيرية التي تدل عليها الآيات دلالة مباشرة.

ويحتاج المفسّر في المسائل التي يفصّل الحديث فيها إلى إحسان تحريرها على ما تقتضيه أصول بحث تلك المسائل بحسب العلوم التي تنتمي إليها تلك المسائل أصالة:

- **فإذا تعلّق البحث ببيان مسائل الآية الاعتقادية** كان عليه أن يكون حسن المعرفة بأصول عقيدة أهل السنة والجماعة حسن التوقّي من أقوال المخالفين لهم على تفاوت مخالفاتهم.

- **وإذا تعلق البحث بتحرير أقوال السلف في تفسير الآية** كان عليه أن يستخرج تلك الأقوال من مصادرها الأصلية أو البديلة، ولا يكتفي بالمصادر الناقلة، وأن يميز بحسب استطاعته ما تصح نسبته من تلك الأقوال إلى من ذُكرت عنهم من السلف مما لا يصحّ، وفي هذا النوع من البحث تفاوت كبير بين المفسّرين.

- **وكذلك إذا تعلّق البحث بالمسائل اللغوية** على تنوّعها احتاج المفسّر إلى دراسة كل نوع منها على ما تقتضيه أصول البحث في ذلك العلم بالقدر الذي يحتاجه المفسّر؛ فإذا اختلف المفسّرون في معنى مفردة من مفردات القرآن، كان على المفسّر الحصيف البحث عن معاني تلك المفردة في معاجم اللغة وكتب علماء اللّغة المتقدّمين، والتعرّف على إطلاقاتها وشواهدها، وموازنة أقوال اللغويين بأقوال المفسّرين، وإعمال قواعد التفسير اللغوي.

وإذا اجتهد المفسّر في حصر الأقوال، وتحرير نسبتها، وأحسنَ دراستها وتصنيفها، وأجرى ما يقتضيه البحث العلمي من الجمع والترجيح والإعلال بقيت عليه بعد ذلك مسألة مهمّة وهي الأسلوب الذي يعرض به دراسته لتلك المسألة على المتلقّين من طلاب العلم.

عرض المسائل التفسيرية في الأسلوب العلمي:

تنوّعت طرق العلماء في عرض ما تحرَّر لهم من المسائل العلمية في التفسير وأقوال المفسّرين فيها؛ وهذا التنوّع يفيد طالب العلم أن ترتيب عرض الأقوال والمسائل العلمية في التفسير قضية اجتهادية يتوخّى فيها المفسّر أحسن الطرق لإفادة المتلقّي وتفهيمه، وقد ينوّع المفسّر نفسُه في الترتيب في عدد من رسائله.

فمن المفسّرين من يبدأ بتقرير القول الصحيح في الآية ثم يعرّج على الأقوال الضعيفة والباطلة ويبيّن ما يردها؛ ليكون أول ما يتلقاه المتلقي هو القول الصحيح.

ومنهم من يعكس الأمر فيبدأ بذكر الأقوال الضعيفة ثمّ يثير الأسئلة التي تبيّن ضعفها ليستحثّ ذهن القارئ على التفكّر في المعنى الصحيح، ثم يسترسل في عرض الأقوال حتى يتوصّل إلى بيان القول الذي يرجّحه.

ومنهم يبدأ بحصر الأقوال وتحرير نسبتها ثم يعقّب ببيان ما يترجّح له ويعلّق على تلك الأقوال بما يراه.

وتختلف مناهجهم في استيعاب الأقوال التفسيرية؛ فمنهم من يجتهد في استيعابها وتلخيصها، ومنهم مَن يرى الإعراض عن الأقوال البعيدة والباطلة.

ومن المفسّرين من يكون غرضه الأكبر من كتابة الرسالة التفسيرية التنبيه على مسألة مهمة من مسائل تفسير الآية وتقرير الاستدلال لها بأوجه متعددة تبيّن صحة القول الذي يرجّحه فيها، ولذلك قد يغلب

عليه النظر في تلك المسألة فيسهب فيها حتى يتجاوز ذكر بعض المسائل المهمة في تفسير الآية لاشتغاله بما يتعلّق بمقاصد كتابته لتلك الرسالة.

تنوع أوجه العناية العلمية لدى المفسرين:

ومما ينبغي أن يُعلم أن أوجه العناية العلمية لدى المفسّرين متنوعة إلى أنواع:

- **فمنهم المعتني بالأحاديث وآثار السلف**، ويظهر ذلك في اجتهاده في تقصي تلك الأحاديث والآثار من مظانها وبيان طرقها، وتحرير نسبتها، والتنبيه على ما يتصل بذلك من الفوائد والعلل في جانبي الرواية والدراية.

- **ومنهم المعتني بجمع وتحرير الأقوال التفسيرية** في مصنفات المفسرين وتعرّف مصادر كلّ قول، وبيان مأخذه ونشأته، وموقف العلماء منه، وطرق نقل المفسرين بعضهم عن بعض، وبيان ما يتصل بذلك من الفوائد والعلل التي لها أثر على تحرير دراسته لتلك المسائل التفسيرية.

- **ومنهم المعتني بالمسائل اللغوية** وطرق استخراجها وجمع أقوال اللغويين فيها، والموازنة بينها.

- **ومنهم المعتني بالمسائل السلوكية** والوقوف عند هدايات الآيات وتدبّرها، واستخراج فوائدها، وطرق دلالة الآية عليها، وجمع أقوال علماء السلوك في تلك المسائل، واستخراجها من مظانها.

ومِن أهل العلم مَن يُوفَّق للجمع بين أنواع من تلك الأوجه، ويظهر ذلك جليّا في رسائله التفسيرية.

ولا يبلغ المفسّر مرتبة متقدمة في التفسير حتى يحسن الجمع بين أنواع من العلوم بما يؤهله لحسن البحث في مسائلها وتحرير أقوالها.

والجامع بين الأنواع المتقدمة هو غلبة الأسلوب العلمي واعتماده على تحرير المسائل العلمية.

المخاطَبون بالأسلوب العلمي:

تقدّم أن أسلوب التقرير العلمي يخاطَب به طلاب العلم والعلماء في الأصل؛ ولذلك يوصى المفسّر أن تكون لغته بهذا الخطاب لغة علمية هادئة محررة تناسب مَن يُخاطبهم، ويلقي إليهم تلك المادّة العلمية.

عناية العلماء بالأسلوب العلمي:

هذا الأسلوب هو الغالب على كتب التفسير وكتب معاني القرآن على تفاوت ظاهر بينهم في التفصيل والإجمال، وتنوّع في أوجه العناية العلمية، وتنوّع في مسالك العرض والتقرير وترتيب المسائل.

ولبعض المفسّرين في رسائلهم التفسيرية عناية حسنة بهذا الأسلوب وبراعة ظاهرة فيه، ومن أجود الرسائل والفصول التفسيرية التي كتبت بهذا الأسلوب:

١. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ...﴾ لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

٢. فصل في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾ لابن القيّم رحمه الله.

٣. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله.

٤. تفسير الباقيات الصالحات للحافظ العلائي.

٥. القسم الأول من رسالة تفسير آية الكرسي للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

أمثلة:

١. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾.

٢. فصل في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

٣. رسالة في تفسير المثل الأعلى.

تطبيق:

- اكتب رسالة تفسيرية بأسلوب التقرير العلمي.

المثال الأول: رسالة في تفسير قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾

الغُرور في اللغة مصدر غرَّ يغُرُّ غُروراً، وهو الخداع بالباطل بسبب الجهل والغفلة وقلة التجربة، ومنه الانخداع بالأماني الباطلة، قال الله تعالى في الشيطان: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾.

وقال آكل المرار والد امرئ القيس:

إن من غرَّه النساء بشيء ... بعد هندٍ لجاهل مغرور

وقال طرفة بن العبد:

أبا منذر كانت غُروراً صحيفتي ... ولم أعطكم بالطوع مالي ولا عرضي

أي: منيتموني بالباطل حتى خدعتموني بتلك الصحيفة.

والمغترّ: المنخدع.

ورجل غرَّته الدنيا: أي خدعته بزينتها وباطلها؛ فهو مغرور منخدع بها.

وغرَّرَ الرجلُ بنفسه إذا عرَّضها للهلكة.

والغِرُّ الذي لم يجرّب الأمور فيسهل انخداعه.

والتغرير بالشخص تعريضه للخديعة لضعف رشده.

والغَرور هو الذي يَغُرُّ غيرَه.

والمغرور هو المنخدع به.

والغُرور هو وصف فعل الخديعة؛ قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، وقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قال الأصمعي: (الغَرور الذي يغرُّك، والغُرور الأباطيل).

فهذا تلخيص كلام علماء اللغة في معنى الغرور، وأقوال المفسرين في تفسير الآية لا تخرج عن هذا المعنى اللغوي.

وما شاع في القرون المتأخرة من إطلاق لفظ الغرور على معنى الزهو والعجب، وقولهم عن صاحب العجب والزهو: إنه مغرور، هو تخصيص لمعنى اللفظ وصرف له عن صريح دلالته في اللغة.

وصاحب العجب يصدق عليه أنه مغرورٌ لأنه منخدع بما غرَّه وفتَنه حتى أصابه ما أصابه من العجب والزهو.

لكن من الخطأ أن يظن أن دلالة اللفظ اللغوية على هذا المعنى هي باعتبار العجب والزهو، وإنما هي باعتبار الجهل والانخداع.

وأما قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ما معنى هذا الأسلوب في اللغة؟ أي: ما غرك بكذا؟ أو ما غرك بفلان؟

المسألة الثانية: ما معنى الاستفهام في الآية؟

المسألة الثالثة: ما جواب الاستفهام؟ وما مناسبة ذكر اسم الله (الكريم) في هذه الآية؟

فأما جواب المسألة الأولى: فالعرب تقول: ما غرك بفلان؟! تريد: ما جرَّأك عليه؟ وما خدعك حتى أصابك منه ما أصابك أو فاتك من خيره ما فاتك؟

- قال الأصمعي: (ما غرك بفلان؟ أي: كيف اجترأت عليه؟). ونقله أبو علي القالي عن أبي نصر الباهلي.

- وفي مواعظ عبد الله بن عمرو بن العاص أن القبر يقول لصاحبه إذا وضع فيه: «**يا ابن آدم ما غرَّك بي؟! قد كنت تمشي حولي فِدَادا**». رواه ابن أبي شيبة وغيره، فداداً أي اختيالاً.

- وقال امرؤ القيس بن حجر الكندي بعد أن ظفر ببني أسد وقتل منهم من قتل بعد أن اجترؤا عليه ونالوا منه:

فقل لدودانَ عبيدَ العصا ... ما غرَّكم بالأسد الباسل؟!

دودان لقبٌ لبني أسد.

قال أبو إسحاق الزجاج في تفسير هذه الآية: (أي ما خدعك وسوَّل لك حتى أضعت ما وجبَ عليك؟).

وقد تناقله كثير من المفسرين.

وأما جواب المسألة الثانية: فالاستفهام جامع لمعنى الإنكار والتوبيخ والتقريع، والقول في معنى الاستفهام فرع عن فهم دلالة الآية.

ولذلك كان مِنَ السلف مَن يَعِظُ بهذه الآية لما فهم منها من معنى الزجر، كما قال سعيد بن عبيد: (رأيت سعيد بن جبير وهو يؤمّهم في

رمضان يردد هذه الآية: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ يرددها مرتين أو ثلاثا). رواه عبد الرزاق.

وأما جواب المسألة الثالثة فقد اختلف فيه على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنَّ الذي غرّه هو جهله، وروي هذا المعنى عن عمر وابن عباس وأبي موسى الأشعري والربيع بن خثيم والحسن البصري.

والقول الثاني: أنَّ الذي غرَّه هو الشيطان، وهذا قول قتادة رواه عنه ابن جرير بإسناد صحيح.

واستدلَّ له بقول الله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ أي خدعكم وجرأكم على عصيان الله الغَرورُ وهو الشيطان في أظهر الأقوال.

والقول الثالث: أنَّ الذي غرَّه هو كرم ربّه، وهذا القول نقل معناه عن الفضيل بن عياض ويحيى بن معاذ وأبي بكر الوراق، وذكر الماوردي ما في معناه احتمالاً، ثم ذكره ابن الجوزي من غير نسبة، ثم اشتهر هذا القول في كتب التفسير.

فالقولان الأولان صحيحان متلازمان؛ فالشيطان هو مصدر التغرير، وجهل الإنسان هو منفذ الاغترار، وبه تسلط الشيطان على المغرور.

وأما القول الثالث فخطأ بين وهو معارض لمقصد الآية، لأنَّ كرم الله لا يغرُّ بل يوجب الشكر، وتذكّر العبد لكرم الله تعالى وتنزّهه عن النقائص والعيوب يحمله على خشيته والاستحياء منه، وإنما الذي يغر جهل الجاهل بما يجب أن يقابل به هذا الكرم، وعمايته عن العبر والآيات.

والجهل هنا ليس المراد به مجرّد عدم العلم الذي يُعذر به غالباً، وإنما المراد به الجهل الحكميّ الناتج عن الغفلة والإعراض عن ذكر الله؛ فيوصف به صاحبه بأنه من الجاهلين وصاحب جهالة، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ وكل ما عصي الله به فهو عن جهالة ونوع سفاهة منافية للرشد.

وقد أحسن ابن القيم وابن كثير في رد هذا القول فقال ابن كثير: (وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾: هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب؛ حيث قال: «الْكَرِيمِ» حتى يقول قائلهم: «غرَّهُ كرمه».

بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم -أي: العظيم- حتى أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق؟ كما جاء في الحديث: «يقول الله يوم القيامة: ابنَ آدم! ما غرك بي؟ ابنَ آدم! ماذا أجبتَ المرسلين؟»).

وقال ابن القيم في "الجواب الكافي": (كاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقَّن المغترَّ حجته!!

وهذا جهل قبيح، وإنما غرَّه بربه الغَرور، وهو الشيطان ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه، وأتى سبحانه بلفظ الكريم وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقه؛ فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه واغتر بمن لا ينبغي الاغترار به)ا.هـ.

وقال البغوي: (وقال بعض أهل الإشارة: إنما قال: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته، كأنه لقنه الإجابة).

قال ابن كثير معقباً على هذا القول: (وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل؛ لأنه إنما أتى باسمه الْكَرِيم لينبه على أنه لا ينبغي أن يُقَابَل الكريم بالأفعال القبيحة، وأعمال السوء).

والكريم من أسماء الله الحسنى ومعناه المتصف بكل كمال وصفات حسنى، فهو كريم في ذاته، كريم في صفاته، كريم في أفعاله، كريم في أحكامه لا يأمر إلا بالعدل والإحسان، كريم في ثوابه، كريم في إنعامه لا تحصى نعمه، ولا يُحَدُّ فضله، وهو الكريم الذي بيده الخير كله، فكل خير هو موليه والمتفضل به، وهو الكريم المتنزه عن كل نقص وسوء.

وهو الكريم فيما يأمره به وينهى عنه ويرشد إليه، إن الله نعما يعظكم به

فما الذي غرَّ هذا الجاهل المغرور بربه الكريم المكرَّم عن كلّ سوء الذي لا يليق أن يقابلَ إحسانُه بعمل السيئات؟!

وما الذي غرَّه بربّه الكريم الذي أنشأه من العدم وأسبغ عليه النعم وعرَّفه بحقّه عليه وعاقبة عصيانه؛ فما الذي غرَّه حتى صرفه عن طاعته وعرَّضه لسخطه؟!

وما الذي غرَّه بربّه الكريم فمنعه من تصديق وعده واتّباع هداه؟! وحرمه من ثواب ربه وعطائه وفضله العظيم؟!

وما الذي غره بربه الكريم الذي لا أكرم منه في ذاته وصفاته، الذي من كرمه تشتاق نفوس العارفين به أعظم شوق إلى لقائه والنظر إلى وجهه الكريم فما الذي غره بربه وحجبه عنه؟!

وما الذي غره بربه الكريم الذي لا يأمر إلا بالعدل والإحسان وما فيه زكاة نفس العبد وطهارتها وقيام مصالح العبد ورشاد أمره، فما الذي غرَّه بربّه وأوقعه في أسر الهوى وعواقب الذنوب وتسلط الشيطان؟!

وما الذي غره بربه الكريم الذي أنعم عليه بالنعم العظيمة من مبدأ خلقه إلى موته فقابلَ نعمه وإحسانه بهذا الكفر والنكران؟!!

فتدبُّر هذه المعاني ومعرفة أوجه اتصالها بمعنى اسم الكريم وآثاره في الخلق والأمر والجزاء يفتح لك أبواباً من فهم القرآن، والله الموفق والمستعان.

المثال الثاني: تفسير قول الله تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾

التفريق بين الإسلام والإيمان استُدِل له بآيات من القرآن الكريم:

منها: قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٤].

وللسلف في تفسير هذه الآية قولان مشهوران:

القول الأول: أن الإسلام المثبَت لهم هو مرتبة الإسلام، وأنهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان.

القول الثاني: أن الإسلام المثبَت لهم هو الإسلام الظاهر الذي لا يقتضي أن يكون صاحبه مسلماً حقاً في الباطن، وذلك كما يحكم لأهل النفاق بالإسلام الظاهر، وإن كانوا كفاراً في الباطن؛ لأن التعامل مع الناس هو على ما يظهر منهم؛ فمن أظهر الإسلام قبلنا منه ظاهره ووكلنا سريرته إلى الله، فيعامل معاملة المسلمين ما لم يتبين لنا بحجة قاطعة ارتداده عن دين الإسلام.

القول الأول هو قول الزهري وإبراهيم النخعي وأحمد بن حنبل واختاره ابن جرير وابن تيمية وابن كثير وابن رجب.

والقول الثاني هو قول مجاهد والشافعي والبخاري ومحمد بن نصر المروزي وأبي المظفر السمعاني والبغوي والشنقيطي.

واستدل أصحاب القول الثاني بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ قالوا: فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم بنص القرآن، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فليس بمسلم على الحقيقة، وإنما إسلامه بلسانه دون قلبه.

وأصحاب القول الأول يقولون إن الإيمان المنفي عنهم إنما هو ما تقتضيه مرتبة الإيمان، فهم لم يعرفوا حقيقة الإيمان وإنما أسلموا على جهل فيثبت لهم حكم الإسلام، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي لم تباشر حقيقةُ الإيمان قلوبَكم.

وابن القيم رحمه الله قال بالقول الأول في "بدائع الفوائد"، وقال بالقول الثاني في "إعلام الموقعين".

والتحقيق أن دلالة الآية تَسَعُ القولين، فإذا أريد بنفي الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ نفي أصل الإيمان الذي يَثبت به حكم الإسلام؛ فهؤلاء كفار في الباطن، مسلمون في الظاهر، فيكون حكمهم حكم المنافقين، وقد يتوب الله على من يشاء منهم ويهديه للإيمان.

وإذا أريد بنفي الإيمان نفي القدر الواجب من الإيمان الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به مؤمنين؛ فهذا لا يستلزم نفي أصل الإيمان والخروج من دين الإسلام، فيثبت لهم حكم الإسلام، وينفى عنهم وصف الإيمان الذي يطلق على من أتى بالقدر الواجب منه.

وهذا كما في "صحيح البخاري" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!».

قيل: من يا رسول الله؟

قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه».

فهذا نفى عنه حقيقة الإيمان والقدر الواجب منه الذي مدح الله به المؤمنين وسماهم به، ولا يقتضي أن من فعل ذلك فهو خارج عن دين الإسلام.

والذي يوضح هذا الأمر أن قول ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾ قد يقوله الصادق والكاذب؛ فإذا قاله الكاذب فهو منافق مدَّعٍ للإسلام مخادع للذين آمنوا، يُظهر الإسلام ويبطن الكفر.

وإذا قاله الصادق فهو مسلم ظاهراً وباطناً، ومعه أصل الإيمان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾.

فعلق وصف الإيمان بالصدق؛ فمن صدق منهم فهو من أهل الصنف الأول، ومن لم يصدق منهم فهو من أهل الصنف الثاني، وهذا يبيّن جواز أن يكون فيمن نزلت فيهم هذه الآيات من هو من أصحاب الصنف والأول، ومنهم من هو من أصحاب الصنف الثاني، وشملت هذه الآيات الصنفين كليهما.

وهذا مثال بديع لحسن بيان القرآن الكريم، ودلالته على المعاني العظيمة بألفاظ وجيزة.

والمقصود أن الآية على القول الأول في تفسيرها فيها دلالة على التفريق بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

قال محمد بن نصر المروزي: (**نقول إن الرجل قد يسمى مسلما على وجهين:**

أحدهما: أن يخضع لله بالإيمان والطاعة تدينا بذلك يريد الله بإخلاص نية.

والجهة الأخرى: أن يخضع ويستسلم للرسول وللمؤمنين خوفا من القتل والسبي؛ فيقال قد أسلم أي خضع خوفا وتقية، ولم يسلم لله، وليس هذا بالإسلام الذي اصطفاه الله وارتضاه الذي هو الإيمان الذي دعا الله العباد إليه)ا.هـ.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

نجَّى الله جميع المؤمنين من العذاب كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ دليل على أنه لم يكن في قرى قوم لوط إلا بيت واحد على الإسلام، وهو بيت لوط عليه السلام.

وأهل لوط كلهم مؤمنون إلا امرأته كانت كافرة بنص القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾، لكن **اختلف أهل العلم، هل كانت مسلمة في الظاهر أو كانت على دين قومها ظاهراً وباطنا على قولين:**

القول الأول: أنها كانت على دين قومها، وإنما كانت خيانتها أنها تدل قومها الذين يعملون السوء على أضياف لوط، وهذه خيانة له.

القول الثاني: أنها كانت تظهر الإسلام وتبطن الكفر.

والقول الأول أصح وأشهر وهو المأثور عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

فإن قيل: كيف يبقيها في ذمته وهي كافرة؟

قيل: إن ذلك كان جائزاً في شريعتهم، كما كان جائزاً في أول الإسلام ثم نسخ.

وسواء أكانت امرأة لوط مسلمة في الظاهر أم غير مسلمة في الظاهر؛ فإن ذلك لا ينقض الحكم على البيت بأنه بيت إسلام، كما أن وجود بعض الكفار في بلاد الإسلام لا يجعلها بلاد كفر.

ومقصود الآية أن قرى قوم لوط لم يكن فيها بيت على الإسلام إلا بيت لوط عليه السلام.

وهذه الآية فيها لطيفة وهي أن المؤمنين موعودون بالنجاة، والمسلم غير المؤمن ليس له عهد بالسلامة من العذاب والنجاة منه؛ فقد يعذب بمعاصيه في الدنيا وقد يعذب في قبره وقد يعذب في النار، لكنه لا يخلد فيها.

وهذا نظيره ما ورد في قصة أصحاب السبت فإن الله تعالى أنجى المؤمنين الذين ينهون عن السوء وسكت عن الساكتين عن إنكار المنكر وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس، فتبين أن أصحاب الكبائر من المسلمين ليس لهم عهد أمان من العذاب كما جعل الله ذلك لأهل الإيمان؛ فقد يُعذَّبون، وقد يعفو الله عنهم بفضله وكرمه، وهذا يبين لك الفرق العظيم بين مرتبة الإسلام ومرتبة الإيمان.

فالمؤمن له عهد أمان بأن لا يعذبه الله ولا يخذله، وأنه لا يخاف ولا يحزن، ولا يضل ولا يشقى، وقد تكفل الله له بالهداية والنجاة والنصر والرفعة.

وهو في أمان من نقمة الله تعالى وسخطه، وفي أمان من عذاب الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

المثال الثالث: تفسير المثل الأعلى

الحمد لله الذي له المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على الرسول النبي الكريم نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد ورد ذكر «المثل الأعلى» - بهذا اللفظ - في آيتين من القرآن العظيم:

- **إحداهما** في سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

- **والأخرى** في سورة الروم وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد تنوعت عبارات السلف في بيان معنى «المثل الأعلى» ومن رويت عنهم آثار من الصحابة والتابعين في بيان معنى المثل الأعلى ثلاثة:

الأول: ابن عباس رضي الله عنه:

فروى معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال: «**يقول: ليس كمثله شيء**». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في "كتاب الاعتقاد" وفي "كتاب الأسماء والصفات".

وهذا تفسير بعض المعنى باللازم؛ فكونه تعالى له المثل الأعلى يقتضي أنه ليس كمثله شيء، قال ابن القيم -رحمه الله- في كتابه "الصواعق المرسلة": (يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما

أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحدَه، يستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير).

وقد استدل رحمه الله بهذه الآية على تفرد الله تعالى بصفات الكمال.

الثاني: قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله:

روى عبد الرزاق في تفسيره عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله**».

ورواه أيضاً ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في "الدعاء".

وروى ابن جرير من طريق يزيد عن سعيد عن قتادة أن المراد بالمثل الأعلى الإخلاص والتوحيد، وفي لفظ عنده: «**مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره**».

وقد نسبه أبو المظفر السمعاني لمجاهد وتبعه على ذلك القرطبي والشوكاني وهو خطأ.

الثالث: محمد بن المنكدر:

قال ابن كثير: (وعن مالك في تفسيره المروي عنه، عن محمد بن المنْكَدِر، في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، قال: لا إله إلا الله).

فهذا ما علمته أُثر عن الصحابة والتابعين في تفسير المثل الأعلى.

وأكثر المفسرين على أن المثل الأعلى الصفات العليا التي تستوجب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، واعتقاد الكمال المطلق له جل وعلا، وأنه لا يساميه في ذلك أحد.

قال ابن جرير (ت:٣١٠ هـ): (﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يقول: ولله المثل الأعلى، وهو الأفضل والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره).

وقال في تفسير آية الروم: (وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يقول: ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ليس كمثله شيء، فذلك المثل الأعلى، تعالى ربنا وتقدّس).

قال أبو جعفر النحاس (ت:٣٣٨هـ): (﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آية، روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال يقول ليس كمثله شيء.

وقيل: يعني لا إله إلا الله.

وحقيقته في اللغة وله الوصف الأعلى).

قال أبو الليث السمرقندي (ت:٣٧٥هـ): (﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العليا، وهي شهادة أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له).

وقال الثعلبي (ت:٤٢٧هـ): (﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا وهي التوحيد والإخلاص).

وقال أبو المظفر السمعاني (ت: ٤٨٩هـ): (وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الصفة العليا، وذلك مثل قولهم: عالم وقادر ورازق وحي، وغير هذا).

وقال البغوي (ت:٥١٦هـ): (﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الصفة العليا، وهي التوحيد وأنه لا إله إلا هو.

وقيل: جميع صفات الجلال والكمال، من العلم، والقدرة، والبقاء، وغيرها من الصفات).

وقال ابن الجوزي(ت:٥٩٧هـ): (قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قال المفسرون: أي: له الصِّفة العُليا ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهي أنَّه لا إِله غيره).

والمثَل في اللغة يطلق على معانٍ:

المعنى الأول: الصفة، وهذا المعنى كثير في الاستعمال، وله شواهد كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ...﴾ الآية فوصفها وسمَّى ذلك الوصف مَثَلاً.

وروى أبو منصور الأزهري عن محمد بن سلام الجمحي قال: (أخبرني عمر بن أبي خليفة، قال: سمعت مقاتلا صاحب التفسير يسأل أبا عمرو بن العلاء عن قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ما مثلها؟

قال: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾.

قَالَ: مَا مثَلها؟ فسكَت أَبُو عَمْرو.

قال: فسألت يونس عنها، فقال: «مَثَلُها: صِفَتُها»).

قال محمد بن سلام: (ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي صِفتهم).

المعنى الثاني: الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أي آية لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾، قال ابن جرير: (﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ يقول: وجعلناه آية لبني إسرائيل). وروى مثله عن قتادة.

المعنى الثالث: العبرة والعظة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾.

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ يقول: وعبرة وعظة يتعظ بهم مَنْ بعدهم من الأمم، فينتهوا عن الكفر بالله). وروى نحوه عن مجاهد وقتادة والسدي.

ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾.

المعنى الرابع: القول السائر، وفيه يقال: (فأرسلها مثلاً) أي جعل كلمته قولاً سائراً يتمثل الناس به في نظائره.

المعنى الخامس: المثل المضروب، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾.

وهذه المعاني الخمسة بينها تناسب واشتراك في قدر من المعنى، ولذلك تنوعت عبارات المفسرين في تفسير ما ورد فيه هذا اللفظ بما يدل على تقارب بين هذه المعاني.

قال ابن فارس: (والمَثَل: المِثْل أيضاً، كشَبَه وشِبْه. والمَثَلُ المضروبُ مأخوذٌ من هذا، لأنَّه يُذكَر مورَّىً به عن مِثلِه في المعنى).

وكلام السلف في تفسير المثل الأعلى غير مخالف لما ذكره علماء اللغة من معنى المثل، فإن الله تعالى هو الإله المتفرد بصفات الكمال المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له، فكونه الإله الحق يتضمن اتصافه بصفات الكمال واستحقاقه لأعظم الحقوق.

قال ابن كثير (ت:٧٧٤هـ): (﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: النقص إنما ينسب إليهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾).

وقال في تفسير آية الروم: (وقد أنشد بعض المُفَسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف:

إِذَا سَكَنَ الغَديرُ على صَفَاء وَجُنبَ أَنْ يُحَرّكَهُ النَّسيمُ
ترى فيه السَّماء بَلا امْتِرَاء كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدو وَالنّجُومُ
كَذاكَ قُلُوبُ أَرْبَاب التَّجَلي يُرَى في صَفْوها اللهُ العَظيمُ).

وقال ابن رجب في "فتح الباري": (وحديث حارثة هو من هذا المعنى؛ فإنه قال: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عرفت فالزم، عَبْدٌ نوَّر الله الإيمان في قلبه» وهو حديث مرسل، وقد روي مسندا بإسناد ضعيف.

وكذلك قول ابن عمر لعروة لما خطب إليه ابنته في الطواف فلم يرد عليه ثم لقيه فاعتذر إليه وقال: «**كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا**».

ومنه الأثر الذي ذكره الفضيل بن عياض: (يقول الله: ما أنا مطلع على أحبائي إذا جنّهم الليل جعلت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة وكلموني على حضوري.

وبهذا فسر المثل الأعلى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾، قال ابن كعب وغيره من السلف: مثل نوره في قلب المؤمن.

فمن وصل إلى هذا المقام فقد وصل إلى نهاية الإحسان وصار الإيمان لقلبه بمنزلة العيان فعرف ربه وأَنِسَ به في خلوته وتنعم بذكره ومناجاته ودعائه حتى ربما استوحش من خلقه، كما قال بعضهم: عجبت للخليقة كيف أنست بسواك؟ بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك...).

إلى أن قال: (وقوله صلى الله عليه وسلم: «اعبد الله كأنك تراه» إشارة إلى أن العابد يتخيل ذلك في عبادته، لا أنه يراه حقيقة لا ببصره ولا بقلبه . وأما من زعم أن القلوب تصل في الدنيا إلى رؤية الله عيانا كما تراه الأبصار في الآخرة كما يزعم ذلك من يزعمه من الصوفية - فهو زعم باطل)ا.هـ.

وهذا الذي ذكره هو ما يسمى بالمثال العلمي، وقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في مواضع من كتبه، ومن أفضل من عبر عنه فيما اطلعت عليه ابن القيم رحمه الله تعالى إذ قال في كتابه "شفاء العليل": (إذا شرح الله صدر عبده بنوره الذي يقذفه في قلبه أراه في ضوء ذلك النور حقائق الأسماء والصفات التي تضل فيها معرفة العبد إذ لا يمكن أن يعرفها العبد على ما هي عليه في نفس الأمر، وأراه في ضوء ذلك النور حقائق الإيمان وحقائق العبودية وما يصححها وما يفسدها وتفاوت معرفة الأسماء والصفات والإيمان والإخلاص وأحكام العبودية بحسب تفاوتهم في هذا النور.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾.

فيكشف لقلب المؤمن في ضوء ذلك النور عن حقيقة المثل الأعلى مستويا على عرش الإيمان في قلب العبد المؤمن؛ فيشهد بقلبه ربًّا عظيمًا قاهرًا قادرًا أكبرَ من كل شيء في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، السماوات السبع قبضة إحدى يديه، والأرضون السبع قبضة اليد الأخرى، يمسك السماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر على أصبع، والثرى على أصبع، ثم يهزُّهن ثم يقول: أنا الملك.

فالسماوات السبع في كفِّه كخردلة في كف العبد، يحيط ولا يحاط به، ويحصر خلقه ولا يحصرونه، ويدركهم ولا يدركونه، لو أن الناس من لدن آدم إلى آخر الخلق قاموا صفًا واحدًا ما أحاطوا به سبحانه.

ثم يشهده في علمه فوق كل عليم، وفي قدرته فوق كل قدير، وفي جوده فوق كل جواد، وفي رحمته فوق كل رحيم، وفي جماله فوق كل جميل، حتى لو كان جمال الخلائق كلهم على شخص واحد منهم ثم أعطى الخلق كلهم مثل ذلك الجمال لكانت نسبته إلى جمال الرب سبحانه دون نسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولو اجتمعت قوى الخلائق على شخص واحد منهم ثم أعطى كل منهم مثل تلك القوة لكانت نسبتها إلى قوته سبحانه دون نسبة قوة البعوضة إلى حملة العرش.

ولو كان جودهم على رجل واحد وكل الخلائق على ذلك الجود لكانت نسبته إلى جوده دون نسبة قطرة إلى البحر.

وكذلك علم الخلائق إذا نسبة إلى علمه كان كنقرة عصفور من البحر.

وكذلك سائر صفاته كحياته وسمعه وبصره وإرادته فلو فرض البحر المحيط بالأرض مداد تحيط به سبعة أبحر وجميع أشجار الأرض شيئا بعد شيء أقلام لفني ذلك المداد والأقلام ولا تفنى كلماته ولا تنفد.

فهو أكبر في علمه من كل عالم وفي قدرته من كل قادر، وفي جوده من كل جواد، وفي غناه من كل غني، وفي علوه من كل عالٍ، وفي رحمته من كل رحيم.

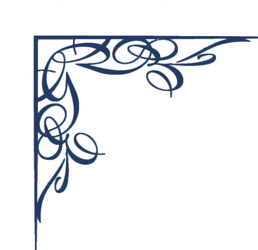
استوى على عرشه واستولى على خلقه، متفرد بتدبير مملكته فلا قبض ولا بسط ولا منع ولا ضلال ولا سعادة ولا شقاوة ولا موت ولا حياة ولا نفع ولا ضر إلا بيده، لا مالك غيره ولا مدبر سواه، لا يستقل أحد معه بملك مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا له شركة في ملكها، ولا يحتاج إلى وزير ولا ظهير ولا معين، ولا يغيب فيخلفه غيره، ولا يعيَا فيعينه سواه، ولا يتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه لمن شاء وفي من شاء؛ فهو أول مشاهد المعرفة، ثم يترقى منه إلى مشهد فوقه لا يتم إلا به وهو مشهد الإلهية؛ فيشهده سبحانه متجلياً في كماله بأمره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه وفضله في ثوابه فيشهد ربًّا قيومًا متكلمًا آمرًا ناهيًا، يحب ويبغض ويرضى ويغضب، قد أرسل رسله وأنزل كتبه وأقام على عباده الحجة البالغة، وأتم عليهم نعمته السابغة، يهدى من يشاء منه نعمة وفضلاً، ويضل من يشاء حكمة منه وعدلاً، يُنزل إليهم أوامره،

وتعرض عليه أعمالهم، لم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم سدًى، بل أَمْره جارٍ عليهم في حركاتهم وسكناتهم وظواهرهم وبواطنهم؛ فلله عليهم حُكْمٌ وأمر في كل تحريكةٍ وتسكينةٍ ولحظةٍ ولفظةٍ.

وَينكشف له في هذا النور عدله وحكمته ورحمته ولطفه وإحسانه وبره في شرعه وأحكامه، وأنها أحكام رب رحيم محسن لطيف حكيم، قد بهرت حكمته العقول وأقرت بها الفِطَر، وشهدت لمنزلها بالوحدانية، ولمن جاء بها بالرسالة والنبوة، وينكشف له في ضوء ذلك النور إثبات صفات الكمال، وتنزيهه سبحانه عن النقص والمثال، وإن كل كمال في الوجود فمعطيه وخالقه أحق به وأولى، وكل نقص وعيب فهو سبحانه منزه متعالٍ عنه.

وينكشف له في ضوء هذا النور حقائق المعاد واليوم الآخر وما أخبر به الرسول عنه حتى كأنه يشاهده عيانًا، وكأنه يخبر عن الله وأسمائه وصفاته وأمره ونهيه ووعده ووعيده، إخبار من كأنه قد رأى وعاين وشاهد ما أخبر به؛ فمن أراد سبحانه هدايته شرح صدره لهذا فاتسع له وانفسح، ومن أراد ضلالته جعل صدره من ذلك في ضيق وحرج لا يجد فيه مسلكا ولا منفذًا، والله الموفق المعين.

وهذا الباب يكفي اللبيب في معرفة القدر والحكمة ويطلعه على العدل والتوحيد الذي تضمنهما قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾)ا.هـ.

الباب الثالث: الأسلوب الوعظي

الأسلوب الوعظي هو الأسلوبُ الذي يكون غرضُ المتكلم به وعظ المتلقّين وتبصيرهم بالهدى وتذكيرهم بآيات الله، وترقيق القلوب، وتزكية النفوس، والحث على التقوى والإحسان، والتحذير من الفتن والأهواء، وغير ذلك من مقاصد الوعظ التي تقوم على التبصير والتذكير، والترغيب والترهيب، والبشارة والنذارة.

وهو من أنفع الأساليب وأحسنها أثراً، وأعظمها ثمرة إذا كان قائماً على أصول علمية صحيحة، وقد بيّن الله تعالى أن من مقاصد إنزال القرآن الكريم وعظَ المؤمنين وتذكيرَهم؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾.

وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾.

بل لعظمة هذا المقصد وحُسْنِ أثره ذُكر بصيغة الحصر المنبّهة على تقديمه والعناية به؛ فقال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهذا فيه أمرٌ بخطاب الوعظ والتذكير، وتنبيهٌ على أهميته وحاجة الأمة إليه، وفيه أيضاً تنبيه على أنّ الوعظ منه حسن ومنه غير حسن، والمأمور به هو الوعظ الحسن، وهو الذي يُتّبع فيه هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ فيكون قائماً على العلم ورعاية المصلحة الشرعية لمن يدعى به.

وأمّا الوعظ القائم على الجهل ونشر الأقوال الباطلة والأخبار الواهية والقصص الخرافية؛ فهو وعظ غير حسن، وإن كان له تأثير على بعض النفوس.

وكذلك الوعظ الذي لا تراعى فيه مصلحة الملتقّي؛ فإنّه قد يُسيء فيه الواعظ من حيث يحتسب النفع؛ فخطاب الخائف الوجل الذي يشفق على نفسه من شدة الخوف وربما اشتكى أذى شديدا من الوسوسة التي تدعوه إلى اليأس من رحمة الله لا يصلح أن يكون كخطاب الذي يعرف منه التهتّك والمجاهرة بالمعاصي، ويظهر منه الفرح بها، والتفاخر بما أصاب منها.

وينبغي للواعظ أن يفقه المقصد الأعظم من الوعظ وهو تعظيم الله تعالى وحَمْدِه وتمجيده وتنزيهه عما لا يليق به؛ ودعوة الناس لتوحيده وعبادته محبّة وتعظيماً وخوفاً ورجاءً على طريقة التسديد والمقاربة.

فمن الوُعّاظ من يتشدد في الترهيب والتحذير أو يتوسّع في الترغيب والانبساط؛ فيذكر في حديثه من الأقوال الباطلة والآثار الواهية أو التي تفهم على غير وجهها ما يلقي به إلى أذهان المتلقين معاني لا تليق بالله جل وعلا؛ حتى يكون أحقَّ بالوَعْظِ ممن يَعِظُهم.

أصناف الواعظين بالقرآن

والمتكلّمون في تبليغ معاني القرآن الكريم بأسلوب الوعظ والتذكير على أصناف:

١. صنف تكلّموا فيه بحقّه؛ فجمعوا الأهلية العلمية وإحسان الخطاب بهذا الأسلوب، فانتفعوا ونفع الله بهم، وقد سلك هذا المسلك جماعة من العلماء في بيان معاني القرآن للناس، وتعريفهم بهداه؛ فكتبوا الرسائل والكتب في تفسير بعض الآيات، وكانت لغتهم فيما كتبوا لغةً وَعْظيةً مؤثرة، قائمة على أصول علمية صحيحة، **ومن أشهر من كتب في ذلك:** شيخ الإسلام **ابن تيمية** وتلميذه **ابن القيم** و**ابن رجب**، و**السعدي**.

٢. وصنف تكلّموا بهذا الأسلوب وكانت لهم براعة في مخاطبة العامّة به، وقدرة على تقريب المعاني، واسترعاء الانتباه، وإيصال الفكرة إلى المتلقّين بطريقة مدهشة ممتعة، أو مؤثرة تأثيراً بالغاً، لكن دخل عليهم الغلط من جانب ضعف الأهلية العلمية؛ فأشاعوا بعض الأقوال الباطلة، والروايات الواهية، والتأملات الخاطئة.

٣. وصنف تكلموا فيه بأهليّة علمية حسنة لكن لم تكن لهم عناية بإحسان الأسلوب الوعظي؛ فدخل الضعف في كلماتهم وعباراتهم، وضَعُفَ تأثيرها بسبب ضعف أسلوبهم.

ركائز الأسلوب الوعظي:

الوعظ قائم على ركيزتين:

إحداهما: التبصير بالهدى فيما يُحتاج إليه، والتذكير به.

والأخرى: استحثاث **محركات القلوب الثلاثة (المحبة والخوف والرجاء)** فإنَّ هذه العبادات العظيمة هي أصل صلاح القلوب، وإذا صلح القلب صلح الجسد كلّه.

- **فمن المؤمنين من يغلب عليه دافع المحبة** فيطيع الله عز وجل محبة له، مع خوفه من الله ورجائه له، لكن الذي يغلب على قلبه سلطانُ المحبة وصدق التقرب إلى الله عز وجل.

- **ومن المؤمنين من يغلب عليه الخوف من الله** فيطيع الله خوفاً منه؛ فالذي يحمله على فعل الطاعات واجتناب المحرمات غالباً إنما هو خوفه من الله.

- **ومن المؤمنين من يغلب عليه رجاء ثواب الله** فتجد أنَّ أكثر ما يحمله على فعل الطاعات واجتناب المحرمات هو رجاء ثواب الله وفضله.

والكمال أن يجمع العبد بين هذه الثلاثة، فيطيع الله محبة له، وخوفاً منه، ورجاء لثوابه وفضله.

والمقصود أن وعظ العلماء قائم على هاتين الركيزتين:

فالركيزة الأولى تثمر التبصّر واليقين وحسن المعرفة بالله تعالى وبهداه.

والركيزة الثانية تثمر الاستقامة والتقوى.

والجمع بينهما هو في حقيقته جمع بين العلم والعمل، لأن صحة العلم مرجعها إلى تعرّف هدى الله تعالى والتبصّر به وتذكّره، وصلاح العمل مرجعه إلى صلاح الإرادة الذي مبعثه صلاح القلب.

تصحيح مقاصد الوعظ:

يجب على الواعظ أن يصحِّحَ مقاصده في الوعظ وأن يجتهد في تحقيق الصدق والإخلاص فيه.

وكلُّ عَمَلٍ يعمله العبدُ صادقاً مخلصاً لله تعالى فيه؛ فإنَّه لا يضيع عند الله تعالى؛ لأنَّ اجتماع الصدق والإخلاص يحصل به معنى الإحسان، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقد ذكر ابن مفلح في "الآداب الشرعية" أنَّ الإمام أحمد ذُكِرَ له الصدق والإخلاص فقال: (بهذا ارتفع القوم).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (يكثر في كلام مشايخ الدين وأئمته ذكر الصدق والإخلاص حتى يقولون: «قل لمن لا يصدق لا يتعنَّى»، ويقولون: «الصدق سيف الله في الأرض ما وضع على شيء إلا قطعه»، ويقول يوسف بن أسباط وغيره: «ما صدق اللهَ عبدٌ إلا صنع له»، وأمثال هذا كثير).

وقال أيضاً: (والله سبحانه يقرن في كتابه بين الشرك والكذب كما يقرن بين الصدق والإخلاص)ا.هـ.

والمقصود أن الموعظة الخالصة الصادقة تنفع صاحبها والمخاطَبين بها بإذن الله؛ ويرجى أن يُكتب لها القبول والبركة وحسن الأثر.

وقد قيل: إن الحديث إذا خرج من القلب وقع في القلب.

وتصحيح المقاصد يشمل جميع ما يصحّ أن ينويه الواعظ بموعظته، وهو باب واسع، وأصله إخلاص النية لله تعالى في الموعظة، والصدق في اتّباع هداه وامتثال أمره.

ثمّ يصحب ذلك مقاصد صالحة يثاب عليها ثواباً زائداً بحسب نيّته وعمله؛ ومن ذلك: إرادة نفع الموعوظين، والتقرب إلى الله تعالى بالدعوة إليه على بصيرة، والسعي في الإصلاح، والدلالة على أبواب الخير، والإعانة عليه، وصدق الرغبة في فضل الله تعالى وبركاته، والتعرّض لرحماته ونفحاته، وإعداد النفس وتمرينها لتصل إلى مرتبة الإحسان في الوعظ، والله تعالى قد كتب الإحسان على كلّ شيء، وهو يحبّ مِن كل عامل أن يُحسن عمله، وأخبر أنه مع المحسنين.

فالمقاصد الصالحة في الوعظ كثيرة متنوّعة، ويرجى أن يضاعف للواعظ الصالح أجره بتعدد مقاصده الصالحة.

وليكن الواعظ على حذر وتوقٍّ مما يفسد النية، ويحبط العمل، ويجلب المقت، ويضعف الإرادة، من التسميع والمراءاة، والتنطع والتكلّف، ومخالفة العمل للقول، والاستجابة لما يثبّط ويعوّق عن الدعوة إلى الله تعالى.

طرق تحسين الأسلوب الوعظي:

ينبغي للمفسّر أن يجتهد في تحسين أسلوبه الوعظي في التفسير لأنه أرجى لكثرة الانتفاع بعلمه، وتوسيع دائرة المخاطبين به، وبقاء أثره في النفوس.

ولتحسين هذا الأسلوب ينبغي للمفسّر أن يعتني بما يؤثّر على نفس المخاطَب من حسن البيان عن معاني القرآن، والبعد عن التعقيد اللفظي والمعنوي، وترك الإسهاب فيما لا صلة له بمقام الوعظ، وتحلية خطابه بالآثار والأخبار والقصص والأمثال ونحو ذلك مما له تأثير بالغ على القلوب؛ فيضيف إلى تفسيره ما يتقوّى به سلطان الوعظ على القلوب، وليحرص على الاستزادة من القراءة في الكتب والرسائل التي أحسن أصحابها الحديث بهذا الأسلوب، وكان لحديثهم قبول وتأثير؛ فيقتبس من طريقتهم ما يحسّن به أسلوبه.

ومما يقوّي تأثير الرسالة التفسيرية الوعظية تحليتُها بالعبارات الموجزة المؤثّرة التي تُنتقى من كلام أهل العلم وحِكَمِهم ووصاياهم، وكذلك ما يُنتقى القصص والأخبار التي فيها عِبَرٌ وآيات، ولها تأثير على نفوس المتلقّين.

ومما يعين على تحسين الأسلوب الوعظي أيضاً: استخراجُ الفوائد السلوكية من الآيات ثم تضمينها في الرسالة في المواضع المناسبة.

الاقتصاد في الوعظ:

أسلوب الوعظ تحتاجه جميع النفوس بالقدر الذي يقيمها ولا يُملّها، وينفعها ولا يضرّها؛ فإن النفس إذا أهمل وعظها وتذكيرها أدركتها الغفلة وتسلط عليها الجهل والهوى، وإذا أُكثر عليها من الوعظ سئمت وأدبرت ولم تنتفع بالموعظة، ولذلك كان من هدي النبي صلى الله عليه وسلّم وهدي أصحابه الاقتصاد في الوعظ والتذكير.

قال أبو وائل شقيق بن سلمة: كان عبد الله [بن مسعود] يذكّر الناس في كل خميس؛ فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال: «**أما إنه يمنعني من ذلك أني أكرَهُ أن أُمِلَّكُم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بها، مخافة السآمة علينا**». متفق عليه.

المخاطَبون بأسلوب الوعظ:

أسلوب الوعظ يناسب العامّة والخاصّة:

- **فإذا كان المفسّرُ يخاطب العامّة** فلتكن موعظته ميسَّرة قريبة لأفهامهم، وليجتنب الإسهاب فيما لا يناسب أفهامهم من المسائل العلمية.

- **وإذا كان يخاطب طلاب العلم وأهله**؛ فليكن وعظه مبنياً على تحرير علمي حسن، وعناية بتقرير الفوائد السلوكية، وإفادة المخاطبين بما ينفعهم من النقول والتقريرات ولطائف الاستدلالات.

وقد تعرض للمفسّر مسألة يحتاج فيها إلى استخدام أسلوب التحرير العلمي في الرسالة الوعظية؛ فيكون تحريره على مرتبتين بحسب المتلقين:

١. فإذا كان التفسير موجهاً للعامّة فيكفي أن يذكر لهم الخلاصة في مسائل الخلاف القوي، وأما مسائل الخلاف الضعيف فالأولى أن لا يشير إليه إلا لفائدة عارضة.

٢. وإذا كان التفسير موجهاً لطلاب العلم والدعاة والعلماء فيفصّل فيه بالقدر الذي يحتمله المقام، وقد يحتاج إلى التفصيل في بعض المسائل لدفع إشكال، أو بيان خطأ فهم شائع، أو بيان علّة قول مشتهر لا يصحّ، ونحو ذلك من غير أن يخرج عن مقاصد الأسلوب الوعظي.

عناية العلماء بالأسلوب الوعظي العلمي في التفسير:

عناية العلماء بأسلوب الوعظ العلمي عناية ظاهرة بيّنة، وما كتبوه من الرسائل والفصول التفسيرية شاهد على ذلك، **ومن أمثلة ما كُتب بالأسلوب الوعظي العلمي:**

١. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ...﴾ لابن القيم.

٢. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

الأمثلة:

١. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

٢. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

التطبيق:

- اكتب رسالة تفسيرية بالأسلوب الوعظيّ.

المثال الأول: رسالة في تفسير قول الله تعالى:



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد:

فهذه تأملات في قول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

هذه الآية تضمّنت دلائل عظيمة ولطائف بديعة، تدبّرها والتفكّر فيها يزيد المؤمن إيماناً ويقيناً ومحبّة لله تعالى، وبصيرة في دينه.

فمن ذلك تصدير الآية بالأمر بالتبشير؛ لما للتبشير من أثر عظيم على النفس البشرية؛ فهو ينمّي الرجاء في القلب ويعظّمه، ويشرع أبواب الأمل، ويعين على الاجتهاد في العمل، ويدفع عن النفس كثيراً من كيد الشيطان وتوهينه وتضليله؛ فإنّ عين البصيرة إذا انفتحت على سبيل الفضل والتكريم، وأيقنت بحسن عاقبة سلوك هذا السبيل لم تلتفت إلى غيره.

وتبشير الله تعالى لعباده المؤمنين دليل من جملة دلائل على عنايته تعالى بهم، ومحبته لهم، ولهذه العناية والمحبة آثارها العظيمة المباركة، فهي محبة من لا يعجزه شيء، ولا يخفي عليه شيء، ولا يغيض من ملكه كثرةُ عطائه.

ومما يدل على تأكيد عناية الله تعالى بهم ومحبته لتبشيرهم؛ أنه كرر الأمر على نبيه صلى الله عليه وسلم في القرآن مرارًا أن يبشرهم، فورد قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بهذا اللفظ في القرآن في خمسة مواضع، وورد أيضًا في موضعين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفي موضعين: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وما يقوم في قلب المؤمن عند تلقّيه البشرى من الله تعالى ومن نبيّه صلى الله عليه وسلم له اعتبار عظيم عند الله جلّ وعلا، وقد تضافرت النصوص على أن تلقّي البشرى بالقبول والشكر والفرح بفضل الله تعالى من دلائل الإيمان ومن موجبات رحمة الله تعالى ومحبّته لمن يقوم بقلبه تلك العبادات التي يحبّها الله.

كما أنّ الإعراض عن تلك البشرى، ومقابلتها بالتشكيك والتهوين، من دلائل مرض القلب ونفاقه، واستحقاقه للحرمان من فضل الله تعالى.

فإنّ نظر الله تعالى إلى القلوب والأعمال لا إلى الصور والأجسام.

فالمؤمن الذي يتلقّى البشارة التي تأتيه من الله بقلب منيب إلى الله فرح بفضله ورحمته شاكر لنعمته يرجى له أن يهديه الله إلى فقه دلائل تلك البشرى العظيمة، ومعرفة مقاصدها، والتبصّر بشروطها وآثارها وآدابها وما أراد الله تعالى من عبده المؤمن بها؛ فإنّ فقه ذلك من العلم الجليل، بل هو صفو العلم وخلاصته، الذي يختصّ الله به أهل البصائر وأولي الألباب

من عباده؛ فإنّ الخطاب في القرآن أشرف الخطاب، ومعانيه أجلّ المعاني، وشأنه أعظم الشأن؛ فمن عقله وفقه دلائله ومقاصده فقد أوتي علماً عظيماً وخيراً كثيراً.

وهذه الآية قد اجتمع فيها على وجازة لفظها من اللطائف الدالة على عظم هذه البشرى ما يحملنا على تدبّرها والتفكر فيها وتذكير النفس بمقاصدها ودلائلها حتى نكتسب اليقين بفضل الله تعالى، وأنه فضل كبير؛ فيحملنا هذا اليقين المبني على حسن التصديق على السعي لتحقيق الشرط الذي تُنال به هذه البشارة العظيمة، وهو شرط قد تضمّنت الآية بيانه.

١: فأوّل اللطائف في هذه الآية؛ أن توجّه الأمر بالتبشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبلّغه أمّته، وتعيين الرسول الكريم واسطة لتبليغ هذا الأمر دليل على عظم شأنه؛ فالأمور العظيمة يُختار لتبليغها العظماء.

٢: واللطيفة الثانية التوكيد بأنّ؛ وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً، والتوكيد له أثر لا يخفى على نفس المخاطب.

٣: واللطيفة الثالثة: تقديم اللام المشعرة بالاختصاص «لهم» لا لغيرهم، فهو فضل خاص بالمؤمنين، وهذه اللام مع دلالتها على الاختصاص تدلّ على التمكين والتمليك بمقتضى هذا الوعد الكريم.

٤: واللطيفة الرابعة: النصّ على أنّ هذا الفضل من الله تعالى، ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

فالنص بأن هذا الفضل من الله وبالصيغة المؤكدة يحمل دلائلَ عظيمةَ الأثر في قلوب المؤمنين:

• **فمن ذلك:** دلالتها على أن هذا الفضل فضل عظيم، جدّ عظيم؛ لأنه فضل من الله، وليس من غيره، والله تعالى عليم بما يُرضي عباده، وما تقر به عيونهم، وتحسن به عاقبتهم.

• **ومن ذلك:** دلالتها على محبة الله تعالى لهم؛ بأن نص على أن هذا الفضل منه -جل وعلّا-، وأنه اختصاص خصّهم به.

• **ومن ذلك:** تحصيل اليقين بقدرة الله تعالى على الوفاء بما وعدهم من الفضل الكبير؛ فإنّه وعد من قادر لا يعجزه شيء.

• **ومن ذلك:** أنه فضل يكفي عن وصفه وتعيين نوعه وأفراده، أنه فضل من الله؛ وكل عطية موعودة، يزنها الناس بقدر معطيها، ألا ترون أن الناس يستشرفون لأعطيات الكبراء من الملوك والتجّار، لمظنة أن أعطياتهم جزلة كثيرة؟!

٥: واللطيفة الخامسة: التنكير في قوله: ﴿فَضۡلًا﴾ وهو تنكير إبهام لغرض التفخيم والتعظيم.

وإبهام العطية الموعودة من قادر عليها يشوّق النفس إليها.

فلو أنّ ملكاً من الملوك أو ثريّا من الأثرياء وعد رجلاً بعطيّة فأبهمها إبهام تفخيم؛ لعلم الموعود أنه إنما أبهمها لتعظيمها، فيحصل له يقين بعظمها بسبب هذا الإبهام، وتذهب آماله كل مذهب لثقته بقدرة ذلك الملك أو ذلك الثريّ على الوفاء بالأعطيات العظيمة.

ونحن نعلم أن هؤلاء الملوك والأثرياء والكبراء لا يساوون في ملك الله عز وجل شيئًا يذكر، ولو اجتمعوا جميعًا من أول ما خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة على أن يعطوا أعطية عظيمة؛ فإنهم لن يبلغوا في ملك الله تعالى نقرة عصفور في بحر عظيم، ولا ينقصون من ملك الله إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ثم أُخرج منه، فهذا القدر من الماء الذي يعلق بالإبرة لا يساوي شيئًا يذكر بالنسبة للبحر العظيم، فهذا مثل ما ينفقون ولو اجتمعوا عليه بالنسبة لفضل الله تعالى، فما ظنكم بفضل الله العظيم؟

٦: **واللطيفة السادسة:** التعبير عنه بلفظ الفضل؛ فسمّاه فضلاً؛ لأنّهم يمتازون به عن غيرهم، ويفضلونهم به، والفضل في اللغة الزيادة في الخير.

يقال: رجل ذو فضل إذا كان له ما يفضل به غيره من أبواب الخير؛ أي يزيد به على غيره؛ من فضل مال أو جاه أو علم قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

والنفس البشرية تتعلّق بما تحبّ أن تمتاز به من الفضل؛ فوعد الله عباده المؤمنين بأنّ لهم فضلاً كبيراً.

٧: **واللطيفة السابعة:** وصف هذا الفضل بأنّه كبير، فمع ما تقدّم من اللطائف ودلالتها على عظم هذا الفضل نصّ هنا على وصفه بأنّه فضل كبير، وهذا الوصف يورث المؤمن يقينا بعظم هذا الفضل الموعود.

والمقصود أن التبشير بهذا الفضل، وبيان اختصاصه بالمؤمنين، والنص على أنه فضل من الله، وإبهام هذا الفضل إبهام تعظيم وتفخيم؛ ووصفه بأنّه كبير، كل ذلك من دلائل تعظيمه لتشرئب الأعناق إليه، وتتطلع النفوس إليه، ويزداد شوقها إليه، وزادهم الله عز وجل بيانًا وتشويقاً بأن وصف هذا الفضل بأنه كبير: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

فضائل الإيمان

وما وعد الله به المؤمنين من الفضل العظيم منه ما بيّن في نصوص الكتاب والسنة، ومنه ما أخفي تشويقا لهم، ولأن عقولهم في هذه الحياة الدنيا لا تحتمله، وأمانيهم لا تبلغه.

ومما يحسن أن نذكّر به أنفسنا ما بيّنه الله تعالى وبيّنه رسوله صلى الله عليه وسلم من فضائل الإيمان في الدنيا والآخرة، وهذا التذكر ينفع المؤمن فيتبصّر وينيب إلى ربّه، ويجتهد في تحقيق الإيمان واستكماله.

وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾.

فمما جعله الله للمؤمنين من الفضل الكبير:

١: **أعلى الفضائل وأشرفها** رؤيته جلّ وعلا في دار الكرامة.

٢: **ودخول جنّته دخول تكريم**، والتمتع بما فيها من النعيم، والإقامة فيها إقامة دائمة لا تحوّل عنها، ولا نكد فيها: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

٣: **ومن أعظم فضائل الإيمان**: النجاة من سخط الله وعذابه، بل جعل الله تعالى ذلك حقاً أوجبه على نفسه كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

٤: ومن أجلّ فضائل الإيمان وأشرفها: معيّة الله تعالى لعباده المؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾، وهذه المعية الخاصة لها آثارها المباركة، وأعظم آثارها محبّة الله تعالى لهم وحفظه وتأييده.

٥: ومن فضائل الإيمان: ما جعله الله لعباده المؤمنين، من الحياة الطيّبة المباركة بطمأنينة القلب، وسكينة النفس، وانشراح الصدر، وقرّة العين، وكفايتهم، والتكفّل لهم بحسن عاقبتهم.

وإذا عصى العبد ربّه وأراد الله به خيراً عجّل له عقوبته في الدنيا.

روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن مغفل، أن رجلا لقي امرأة كانت بغيا في الجاهلية، فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها، فقالت المرأة: مه، فإن الله عز وجل قد ذهب بالشرك وجاءنا بالإسلام؛ فتركها وولى، وجعل ينظر إليها حتى أصاب وجهه الحائط فشجَّه؛ ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فقال: «أنت عبد أراد الله بك خيرا، إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبد شرا أمسك عليه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة كأنه عير».

٦: ومن فضائل الإيمان: ما أوجبه الله لعبده المؤمن من حرمة حقّه، وتكفّله بحفظ حقه والمدافعة عنه، وانتصاره له ممن يظلمه، أو يناله بكلمة فأكثر أو يسيء به الظنّ به، أو يكيده بمكيدة، فكلّ ذلك محفوظ للمؤمن لا يضيع عند الله تعالى، يعجّل الله لبعض المؤمنين بعض حقّهم من ذلك في الحياة الدنيا، ويدّخره لبعضهم فيأتيهم موفوراً يوم تنصب الموازين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾.

٧: **ومن فضائل الإيمان:** ما أكرم الله به عباده المؤمنين من إجابة دعواتهم وذكره لهم إذا ذكروه، كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وسماعه لما يبثونه من الشكوى والحاجات، وإجابته لهم في صلواتهم؛ ورحمته إياهم؛ بكشف كروبهم، وإنزال السكينة عليهم، وكشف الغمّ عنهم، وهداية قلوبهم عند نزول المصائب ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾.

٨: **ومن فضائل الإيمان:** ما جعله الله من روابط الأخوة الإيمانية بين المؤمنين، وهذه الأخوة لها حقوق وآثار مباركة، فأوجب للمؤمن على إخوانه حقوقاً، وأدّبهم في معاملته والحديث معه.

٩: **ومن فضائل الإيمان:** ما فتحه الله للمؤمن من أبواب الخير الكثيرة، حتى جعله له من كلمات يسيرة يقولها أجوراً عظيمة مضاعفة، ومن تأمل ما جعله الله من ثواب الأذكار والأعمال الصالحة والأجور العظيمة المضاعفة عليها أدرك هذه الحقيقة، وأنها من دلائل محبّة الله تعالى لعباده المؤمنين، ومحبّته لأن يستكثروا من فضله، وهذا الفضل خاصّ بالمؤمنين، فغير المؤمن لو عمل من هذه الأعمال ما عمل لم يقبله الله منه.

١٠: **ومن فضائل الإيمان:** أنّ المؤمن ما بقي صحيح الإيمان فإنّه يستجاب دعاء المؤمنين له، دعاء الملائكة ودعاء الأنبياء والصالحين، من أوّل ما خلق الله الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فهذا الدعوات المتقبّلة ينالها كلّ عبد مؤمن صحيح الإيمان، ويحرم منها من حرم الإيمان.

فهذه عشرة أنواع من فضائل الإيمان؛ كلّ نوع منها خير من الدنيا وما فيها.

شرط الفوز بالبشارة في هذه الآية:

والمقصود أنّ هذه البشرى العظيمة بالفضل الكبير من الله تعالى لها شرط قد تضمّنته هذه الآية، وهو شرط الإيمان؛ فمن كان مؤمنا كان من أهل هذه البشرى العظيمة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الإيمان.

ومما ينبغي أن يعلم أن الإيمان يتفاضل، فأعظم المؤمنين نصيباً من هذه البشرى أحسنهم إيماناً، والإيمان قول وعمل واعتقاد؛ وشأن إيمان القلب عظيم وهو أصل صلاح الجوارح، فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد، وكم من الأعمال التي تتشابه في صورتها الظاهرة ويكون تفاوت الناس فيها عند الله تعالى تفاوتاً عظيماً في المحبّة والأجر والتكريم.

ومن تأمّل فضائل الإيمان العظيمة، وتأمّل عظيم الخسران لمن حرم هذه الفضائل، وسوء عاقبته، علم سبب شدة خوف السلف رحمهم الله من أن يُسلب أحدهم الإيمان؛ فإن الفتن والمعاصي قد تغري العبد فيسترسل فيها حتى يسلب الإيمان وينسلخ من الدين؛ فيشقى الشقاء العظيم، والعياذ بالله تعالى.

بل قد يقول المرء كلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم، كما صحّ بذلك الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، في صحيح البخاري وغيره.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا».

وكان سفيان الثوري رحمه الله يبكي ويقول: «**أخاف أن أُسلب الإيمان عند الموت**».

ولذلك اشتدّ تحذير النبي صلى الله عليه وسلم وتحذير العلماء من التهاون في الذنوب والمعاصي؛ فإن العبد ما دام مصرّا على ذنب فهو على خطر من عقوبته؛ ومرض قلبه، وتعرّضه لذنوب أعظم بسبب تهاونه في ذلك الذنب وإصراره عليه؛ فالمعاصي بريد النفاق؛ ومن كثر غشيانه للمعاصي حصل له من مرض القلب أو موته بسبب تفشّي النفاق فيه ما يخشى عليه أن يزيد به حتى يموت قلبه بالكلية ويسلب الإيمان عند الموت والعياذ بالله تعالى.

قال ابن تيمية: (إذا أصر على ترك ما أمر به من السنة، وفعل ما نهي عنه، فقد يعاقب بسلب فعل الواجبات، حتى قد يصير فاسقا أو داعيا إلى بدعة، وإن أصر على الكبائر، فقد يخاف عليه أن يسلب الإيمان، فإن البدع لا تزال تخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة، كما وقع هذا لغير واحد ممن كان لهم أحوال من المكاشفات والتأثيرات)ا.هـ.

وقال ابن القيم رحمه الله: (اعلم أن العقوبات تختلف فتارة تعجَّل، وتارة تؤخَّر، وتارة يجمع الله على العاصي بينهما.

وأشد العقوبات: العقوبة بسلب الإيمان، ودونها العقوبة بموت القلب، ومحو لذة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة منه، وربما دبَّت عقوبة القلب فيه دبيب الظلمة إلى أن يمتلئ القلب بها؛ فتعمى البصيرة.

وأهون العقوبة ما كان واقعا بالبدن في الدنيا، وأهون منها ما وقع بالمال)ا.هـ.

اللهم أحينا مؤمنين، وتوفنا مؤمنين، وألحقنا بالصالحين، يا أرحم الراحمين.

المثال الثاني: رسالة في تفسير قول الله تعالى:



أصدق علامات الإنابة: طمأنينة قلب المؤمن بذكر الله، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

قال قتادة: (سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). رواه ابن جرير.

فطمأنينة القلب بذكر الله: سكونه واستئناسه ورضاه بسبب ذكر الله وما دلَّ عليه.

والباء فسرت بالسببية والمصاحبة والملابسة والاستعانة والتبرك، وكلها معانٍ صحيحة تتسع لها دلالة هذا الحرف.

وهذه العلامة [طمأنينة قلب المؤمن بذكر الله] جامعة لمعانٍ عظيمة، يدلّ عليها ما فسّر به ذِكْر الله هنا:

فقيل: الذكر: هو القرآن.

وقيل: الذكر هو ذكر العبد ربَّه بلسانه.

وقيل: الذكر هو ذكر العبد ربَّه في نفسه.

وقيل: الذكر هو التذكر الذي ينتفع به العبد من تفكره في آيات الله ومخلوقاته.

وكل هذه المعاني صحيحة وهي من مدلول معنى ذكر الله جلَّ وعلا، وبها تحصل طمأنينة القلب؛ **فإن المؤمن إذا دهمه ما يُزْعِجُه ويُجْزِعه ثم ذَكَرَ ربَّه في نفسه** وعلم أن له ربّا سميعاً بصيراً رحيماً ودوداً لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء ولا يخذل أولياءه ولا يتخلَّى عنهم، بل يهديهم وينصرهم ويحفظهم اطمأنَّ قلبُه لما تذكَّر من أسماء الله وصفاته وآثارها التي لا تتخلف عنها.

- **وإذا ذكرَ وَعْدَ الله تعالى لمن اتبع هداه** أن لا يخاف ولا يحزن وأن لا يضل ولا يشقى، وأن الله مع عباده المؤمنين المتقين يحبهم ويؤيدهم وينصرهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور: اطمأنَّ قلبه بذكر الله، وصدق وعده.

- **وإذا تلا آيات الله** وجد من نفسه طمأنينة لها وفرحاً بها ورضا ينشرح به الصدر وتسكن به النفس فيطمئنُّ القلب بذكر الله الذي أنزله على عباده؛ فيتبع العبد ما فيه من الهدى، ويعتبر بما فيه من العبر والمواعظ، ويعقل ما فيه من الأمثال، فيثبت بإذن ربه على الحق والهدى فيزيده الله هدى وفضلاً وثباتاً على الحق.

- **وإذا تأمَّل آيات الله الكونية** واعتبر بما فيها من العبر العظيمة وتعرَّف بها على أسماء الله وصفاته، وأن من خلق هذا الكون العظيم فإنه أعظم منه، ومن سيَّر هذه الأفلاك العظيمة بنظام دقيق عجيب محكم حكيم عليم قدير، وأن من يدبّر أمور الكائنات على كثرتها الهائلة وتنوعها العظيم واختلافها وتزامنها لا يشغله شأن عن شأن، ولا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء.

ولا يزال يتفكر في نفسه وفي الآفاق وفي ما يراه من عجائب خلق الله تعالى للكائنات وتدبيره لأحوالها وتقديره لأوصافها وقسمه لأقواتها وأرزاقها وطبائعها وأخلاقها.

فيكون هذا التفكر دليلاً يذكّره بالله فيطمئنّ قلبه بذكر الله، ويثمر له هذا التفكر والتذكر ما يثمر من خشية الله والإنابة إليه وتعظيمه ومحبته والخضوع لأمره، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

ويدلّ على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

- **وإذا ذَكَرَ العبدُ ربَّه بلسانه** مؤمناً بالله جلَّ وعلا عَصَمَه الله من كيد الشيطان الوسواس الخناس الذي يوسوس فإذا ذكر العبد ربَّه خنس، وَوُقِي أيضاً شرَّ وسوسة نفسه الأمارة بالسوء وشر وسوسة شياطين الإنس والجن، وإذا اندفعت هذه الوساوس عن القلب وعُصم العبد من شرها اطمأن القلب لعصمته من الأذى الذي كان يزعجه ويقلقه؛ فإن ما يحجب الطمأنينة عن القلب راجع إلى معانٍ متقاربة من التحزين والتيئيس والتشكيك والتخويف وكلها إنما مصدرها شرور النفوس ووساوس الشياطين؛ فإذا عُصم العبد منها بقي القلب مطمئناً بذكر الله جلَّ وعلا.

وهذه المعاني إذا تأملتها حقَّ التأمل وجدتها من أظهر علامات الإنابة إلى الله تعالى.

وأن الشقي المحروم هو المعرض عن ذكر ربه، الذي إذا ذكر الله اشْمَأَزَّ قلبه، وإذا تليت عليه آياته أعرض عنها؛ فهذا من المجرمين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ومن تأمَّل العقوبات التي جعلها الله لمن أعرض عن ذكره علم شدة انتقام الله جلَّ وعلا ممن لا يُنيب إليه ولا يطمئنّ قلبه بذكره.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

فتأمّل شدة هذه العقوبة، وكيف أنها في مقابل ما يمنّ الله به على أهل الإنابة والخشية من فهم القرآن وفقهه والانتفاع به.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فانظر حفظني الله وإياك ووقانا أسباب سخطه ونقمته عظم هذا الذنب وهو عمل قلبي وكيف أنه سبب لهذه العقوبات العظيمة من الشقاء والخذلان، وتسلط الشياطين، والحرمان من الهدى والانتفاع بالقرآن، **وسبب ذلك**: الإعراض عن ذكر الله.

وعلاجه: الإنابة إلى الله تعالى، وطمأنينة القلب بذكره.

وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ يدلك على أن القلوب لا طمأنينة لها على الحقيقة إلا بذكر الله جلَّ وعلا؛ الذي هو ربّها وخالقها ومعبودها الحق لا إله إلا هو.

وأنَّ ما يحصل لأهل المعصية والإعراض من الفرح والانبساط إنما هو سكرة نفسية وخفَّة شيطانية كما يسكر صاحب الهمّ بالخمر فيجد لها انبساطاً فإذا صحا من سكرته عاد إليه كَدَرُه، وحضَرَهُ ضيقُه وهمُّه أشد مما كان عليه؛ فيدفع أثر السُّكْرِ بِسُكْرٍ مثلِهِ أو أشد.



الباب الرابع: الأسلوب الاستنتاجي

الأسلوب الاستنتاجي هو أسلوب قائم على استنباط الفوائد واستخراج المسائل والأحكام من الآيات القرآنية، سواء أكانت تلك الفوائد فقهية أم عقدية أم سلوكية أم لغوية.

فالجامع الذي يجمعها هو أسلوب الاستنتاج والاستخراج والاستنباط، ومن أهل العلم من تكون له براعة في الاستنباط في هذه الأنواع كلها، ومنهم من تغلب عليه العناية بنوع منها.

وغرض هذا الأسلوب الأصلي هو إفادة المتلقي بتلك الأحكام والفوائد، وبيان دلالة الآية عليها، والتنبيه على سعة معاني ألفاظ القرآن وتنوّع دلالاتها.

فوائد الأسلوب الاستنتاجي

هذا الأسلوب فيه تمرين ذهني حسن، وإعمالٌ للأدوات العلمية التي تُستخرج بها المسائل والفوائد والأحكام، ويعين على تنمية ملكة الاستنباط وتقويمها، ويقوّي نظر المفسّر، ويزيد من تفطّنه لمآخذ الأقوال وعللها، وتقرير الاستدلال لها ونقدها.

وإذا أحسن الطالب التدرب على هذا الأسلوب حتى يتمهّر فيه فقد أوتي حظاً عظيماً من علم التفسير.

طرق تحسين الأسلوب الاستنتاجي:

ينبغي لطالب العلم أن يجتهد في تحسين أسلوبه الاستنتاجي من ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: تنمية الإلمام بأصول التفسير وقواعده وضوابطه، حتى يكون كلامه في التفسير منضبطاً بالأصول العلمية، عالماً بتحرير مسائل التفسير، وطرق التعامل مع أقوال المفسرين واستدلالاتهم، لئلا يقع في كلامه مخالفة للمنهج العلمي الصحيح في التفسير.

والجانب الثاني: التأهّل في العلوم التي تتطلبها البراعة في الاستنتاج؛ فيدرس مختصرات في أصول الفقه والنحو والصرف والبلاغة ومعاني الحروف وفقه اللغة والاشتقاق، وهذه العلوم غنيّة بالأدوات العلمية التي تُستخرج بها المسائل والفوائد، والتمكن من هذه العلوم من أعظم أسباب التفاوت بين المفسّرين في الاستنباط.

وليحرص طالب العلم عند دراسته لتلك العلوم أن ينتفع بما يدرسه منها في التفسير.

والجانب الثالث: التمرّن على محاكاة أساليب العلماء في الاستنباط، واستعمال الأدوات التي يستعملونها، والتعرّف على طرق استخراجهم للمسائل والفوائد وتطبيق ما تعلّمه على ما يدرسه من الآيات.

ومِن أحسن ما يعينه على تحسين أسلوبه الاستنتاجي قراءة الرسائل التفسيرية التي تظهر فيها العناية بهذا الأسلوب، والتمعّن فيها.

المخاطَبون بالأسلوب الاستنتاجي:

عامّة المخاطبين بهذا الأسلوب هم من أهل العلم وطلابه، ولذلك ينبغي أن تكون لغة الخطاب في هذا الأسلوب لغة علمية رصينة، وأن يكون لما يذكره المفسّر من المسائل والفوائد وجهاً صحيحاً في الاستدلال والاستخراج، وأن يتجنب التكلّف والتمحّل، والتسرّع بإطلاق الأحكام والدعاوى من غير نظرٍ في موافقتها للنصوص ومقاصد الشريعة، ولذلك ينبغي أن يعرض المفسّرُ ما استخرجه من المسائل والفوائد على النصوص فما خالفها فهو مردود.

عناية العلماء بالأسلوب الاستنتاجي:

عناية العلماء بالأسلوب الاستنتاجي ظاهرة جلية في كتب التفسير، والرسائل التفسيرية، وقد **وبرع في الاستنباط والاستخراج جماعة من العلماء** منهم: **الشافعي** و**أبو عبيد القاسم بن سلام** و**البخاري** و**ابن المنذر** و**ابن خزيمة** و**ابن جرير الطبري** و**الطحاوي** و**ابن حبّان**.

- **ثم أتى بعدهم:** شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن الجزري.

- **ثمّ أتى بعدهم:** الحافظ ابن حجر والسيوطي، وله كتاب مفرد في ذلك سمّاه "الإكليل في استنباط التأويل".

- **ثمّ أتى بعدهم:** شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وله عناية بالغة بهذا الأسلوب في عدد من رسائله في التفسير، والشوكاني كذلك له عناية حسنة بالاستنباط.

ثمّ أتى بعدهم: عبد الرحمن السعدي، وعبد الرحمن المعلّمي، ومحمد الأمين الشنقيطي، وابن عثيمين.

ولهؤلاء العلماء وغيرهم في كتبهم ورسائلهم ما يدلّ على براعتهم في استخراج المسائل والفوائد والأحكام واللطائف.

وبعض المفسّرين يستعمله في تفسير بعض الآيات من تفسيره فيميّزها بمزيد عناية كما استنبط السعدي في تفسيره لآية الوضوء نحو خمسين فائدة؛ فخرج في هذا الموضع عن طريقته التي انتهجها في تفسيره إلى الأسلوب الاستنتاجي.

وله رسالة في استنباط مائة فائدة من قصة يوسف، ولتلميذه الشيخ محمد العثيمين رحمه الله عناية حسنة بهذا الأسلوب في مواضع من تفسيره.

ومن أمثلة ما كُتب بهذا الأسلوب:

١. الفوائد المستفادة من قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ لابن القيّم رحمه الله

٢. تفسير صدر سورة المدثر لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

٣. تفسير آية الوضوء للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله.

٤. القسم الثاني من تفسير آية الكرسي للشيخ محمد بن صالح العثيمين.

أمثلة:

١. فوائد سلوكية من قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

٢. تأمّلات في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾.

التطبيق:

- اكتب رسالة تفسيرية بالأسلوب الاستنتاجي.

المثال الأول: فوائد سلوكية من تفسير قول اللّه تعالى:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ...﴾

الحمد لله الذي له المحامد كلها، على كرمه وعلمه، وعلى عفوه وحلمه، وعلى هدايته وتوفيقه، والصلاة والسلام على خير عباده، وصفوة أوليائه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه أما بعد:

فهذه فوائد سلوكية من تدبر قول الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وبيان ما تضمَّنه من هدايات جليلة القدر عظيمة النفع لمن وفّقه الله:

فمنها: تضمّن هذه الآية الكريمة بيان سرّ السعادة وسبب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وهو الاستجابة لله تعالى؛ فالمستجيب هو السعيد الذي له كتب الله له الحُسْنى.

ومنها: ما في هذه الآية ضمان كريم ووعد صادق من الله تعالى - والله لا يخلف الميعاد - أن من استجاب له تعالى فسيكون في أحسن حال.

ومنها: أنَّ وصف الحُسنى في الآية عامّ للحال والمآل على أظهر أقوال المفسّرين.

ومنها: أنَّ بناء لفظ «الحُسنى» الصرفي على «فُعْلى» دالٌّ على بلوغ الغاية في الحسنِ حسن الحال وحسن الجزاء، كما يقال: المثلى والوُثقى والعظمى والكبرى للدلالة على بلوغ منتهى الغاية في ذلك.

ومنها: أن هذا الجزاء منحة خاصة لأهل الاستجابة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ فلهم بها أعظم الامتياز عن غيرهم، دلَّ على ذلك تقديم الجار والمجرور ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

ومنها: أن الاستجابة لا تكون إلا بعد دعوة فدلَّ ذلك على سبق بيان الهدى؛ وتكفّل الله تعالى به في كل ما يحتاجه العبد وإنما عليه الاستجابة.

ومنها: أن هذا الثواب عام في الدنيا والآخرة، وسيجد المستجيب لربه أحسن ما يُنال وأفضله في الميزان الصحيح.

ومنها: أن **اقتران ذكر الاستجابة بوصف الربوبية له دلالات عظيمة:**

إحداها: أنه تعالى هو ربّ المستجيبين ربوبية خاصة تملأ قلوبهم ثقة وطمأنينة بحسن هداه وصدق وعده.

والثانية: أنه تعالى أعلم بما يصلح عباده وأرحم بهم من أنفسهم؛ فقد يمنعهم بعض ما يشتهونه وقاية لهم مما يفضي إلى شقاوتهم وهلاكهم.

والثالثة: أنه تعالى هو الربّ الكفيل ببيان هداه وإنجاز وعده.

والرابعة: أنَّ المستجيب الصادق سيجد العون على الاستجابة لربّه جلّ وعلا.

ومن الفوائد أيضاً: أن هذه الاستجابة ميسَّرة لا حرج فيها دلَّ على ذلك استصحاب أصل رفع الحرج في كلّ ما يأمر الله به عباده.

ومنها: أن استجابة العبد يجب أن تكون خالصة لربه جلّ وعلا ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ دلّ على ذلك معنى الاختصاص في حرف اللام في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾ أي لا لغيره؛ فيعمل الطاعات امتثالاً لأمر الله وابتغاء وجهه.

ومنها: أن استجابة العباد لربّهم على درجات متفاوتة، دلّ على ذلك ظهور التفاوت في تحقيق الاستجابة؛ فمن المستجيبين من هو محسن في استجابته مسارع بها إلى الله تعالى؛ فله أحسن الجزاء وأحسن العاقبة، ومنهم المقتصد الذي يستجيب استجابة تبرأ بها عُهدته، فينال بذلك حسن ثواب المتّقين، ومنهم الظالم لنفسه الذي في استجابته نقص وتفريط؛ فيستجيب له في أصل الدين وما يحفظ به إسلامه ويقصّر في بعض ما يجب عليه فيما وراء ذلك؛ فله من حسن العاقبة ما وعد الله به أهل الإسلام من النجاة من النار ودخول الجنّة وإن عُذّب قبل ذلك ما عذّب.

فهؤلاء كلهم من أهل الاستجابة، والتفاضل بينهم في الحال والجزاء عظيم كما تفاضلوا في الاستجابة.

فتبيّن بذلك أن أسعد الناس بأحسن الأحوال والجزاء أحسنهم استجابة لربه جلّ وعلا.

وأمّا الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ فهم الذين لم يستجيبوا له في أصل الدين وهم الكفار والمنافقون، والعياذ بالله.

ومنها: أنَّ العبدَ لو تأمّل أسباب شقائه وسوء حاله لوجده راجعاً إلى أصل واحد، وهو تقصيره في استجابته لربه فساءت حاله لما أساء.

ومنها: أنَّ كل أمر يعترض العبد يقابله هدى من الله تعالى يُحِبُّ أن يستجاب له فيه؛ فمن استجاب فاز بالحسنى ومن أعرض عرّض نفسه لسوء الحال والعقاب.

ومنها: أنَّ يقين العبد بأن مدار سعادته وفوزه وفلاحه على استجابته لله تعالى يجعله دائم الفكر فيما يرضي ربه وما يحب أن يستجاب له فيه، وهنا سر العبودية.

ومنها: أنَّه من المُحَال شرعا وعقلاً عند أهل العلم والإيمان أن تكون عاقبة المستجيب لربه سيئة، فمن أيقن بهذا أحسن الظنّ بالله، ورضي به ربّا، وتيسّر له تحقيق التوكل.

فهذه بضع عشرة فائدة سلوكية في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ من تبصَّر بها وفقه معانيها وعرف قدرها تبيَّنت له مناسبة قول الله تعالى في الآية التي تليها: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾.

هذا مما فتح الله تعالى به من بيان بعض ما تضمنته هذه الآية من الفوائد السلوكية على تقصير في الشرح وقصور في التعبير عن دلائل هذه الكلمة العظيمة، أسأل الله تعالى أن يتقبلها ويبارك فيها إنه حميد مجيد.

وأستغفر الله تعالى من الخطأ والزلل، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه.

المثال الثاني: تأملات في قول الله تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾

تضمنت هذه الآية الجليلة على وجازة ألفاظها **آداب مجادلة أهل الباطل**، وبيان شروط تمام الغلبة، والتنبيه على العلل التي يُخذل بها بعض المجادلين، وتضمّنت وعداً بكرامة عظيمة لمن التزموا هذه الآداب وحققوا تلك الشروط.

١: فأول هذه الآداب أن يستشعر المجادل أن الذي يقذف هو الله، وأنه مجرد سبب وأداة يُنصر بها الحق، وغاية ما يرجو من الشرف أن يكون سبباً صالحاً؛ فإن الله تعالى أسند القذف إليه، وقال في محاجة إبراهيم لقومه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾.

ومن ظنَّ أنه هو الذي يستعلي بحجته ودهائه وتفننه في أساليب البلاغة فليشفق على نفسه من الخذلان والاستدراج، وذلك لضعف توكله على الله واستعانته به، ويكثر في هذا الصنف أنهم إذا حصل لهم شيء من العلو الظاهر لضعف الخصم أصابهم من الزهو والعجب ما يذهب الأجر ويجلب المقت.

وهذا الأدب الجليل يحمل العبد على تحقيق التوكل على الله والاستعانة به، والتواضع لجلاله وعظمته، واستلهام هدايته وتوفيقه، وأن يستشعر العبد أنه جندي من جنود الحق؛ يشرف بهذه النسبة، ويطمئن لضمان الله الغلبة لجنده؛ فيعتقد أن الله حسبه وكافيه.

فيكون أكثر ما يخشاه أن يستزله الشيطان ببعض ما كسب؛ فيدفعه ذلك لتحقيق الاستقامة وإتباعها بالاستغفار وتكرار التوبة؛ فالمصاولة العلمية لا تقل عن المصاولة على أرض القتال؛ وقد أثنى الله على المحسنين في الجهاد بقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَٔخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

فهؤلاء من المحسنين في جهادهم.

٢: أن هذا المقام إذا صحّ في قلب المؤمن المجادل بالحق أثمر فيه عبادات قلبية عظيمة من المحبّة والخوف والرجاء والخشية والإنابة والتوكل والاستعانة والاستعاذة وغيرها فتجتمع في قلبه اجتماعاً حسناً، وهذه الأعمال أحبّ إلى الله تعالى من أعمال العبد الظاهرة، وقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّ الله ينظر إلى القلوب

كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

٣: أن يتمحض المؤمن المجادل للحق، ويكون رده على محض الباطل؛ ولذلك قد يتجادل خصمان مع أحدهما حق كثير وباطل قليل، والآخر بعكسه؛ فلا (يدمغ) أحدهما الآخر، وإنما يدمغ حق كل منهما باطل صاحبه؛ فإن في الحق قوة لا تقبل الإزهاق وإن كان مع صاحبه باطل كثير.

وقد قال النبي في الشيطان وهو رأس الباطل: «صدقك وهو كذوب».

ولذلك فإن من الإنصاف اعترافك بالحق الذي قال به خصمك في المجادلة وإن كان قليلاً، ثم ترد باطله، وأما ردك حقه بحجة كثرة باطله فهو نوع مكابرة قد تخذل بسببها، وقد يتأخر النصر.

٤: أن يتوجه المجادل بالحجة على أصل الباطل ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ ولا ينشغل بالأطراف والقضايا الجانبية التي لو بيَّن بطلانها بقي غيرها ومنبعها الذي يولّد أطرافاً أخرى.

٥: الحق فيه علوّ ملازم له، والباطل سافل بذاته، وإنما يرتفع بالإثارة؛ كالغبار والدخان إذا أثيرا آذا وأزكما وربما حجبا رؤية الحق عن الذين لا يعرفون معالمه؛ فإذا عُرف مصدر إثارة الباطل، ووجهت إليه قذيفة الحق عاد الباطل إلى أصله ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾.

٦: معرفتك بعلوّ الحق وقوته تكسبك طمأنينة وثقة وتماسكاً وثباتا يفتقده المجادل بالباطل، فإن المجادل بالباطل متحفّز لنصرة باطله دائب على إثارته حتى لا يخبو فيعود لأصله، فهو ملازم للقلق والاضطراب والتخوف، وأما صاحب الحق فإنه ينظر إلى الباطل من علو فيعرف مصدر إثارته وأصل شبهته فيوجه إليه قذيفة الحق فيدمغه.

٧: علو الحق مستلزم لعلوّ صاحبه، وما الناس إلا فريقان: فريق هم أهل الحق، وفريق هم أهل الباطل، فمن كان من أهل الحق القائمين به كان موعوداً بالعزة والرفعة والعلو كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾.

ولما أَذِن الله تعالى بالقتال في سبيله وحث المؤمنين عليه ووعدهم بالنصر علَّل ذلك بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾.

فكونه تعالى هو الحق يقتضي أن لا يقر الباطل؛ بل لا بد أن ينصر الحق ويعليه على الباطل.

وَخَتْم الآية بالاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ لهما أثرهما العظيم في بيان هذا التعليل؛ فهو العلي بذاته وأسمائه وصفاته، ودينه أعلى الأديان، وعباده المؤمنون هم الأعلون، ومن سواهم فهم الأذلون الأرذلون، ولا يمكن أن يغلب الأذل الأعز، والا الأدنى الأعلى.

وهو ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبر منه؛ فهو أكبر من كل شيء بذاته وصفاته، وهذه الصفة الجليلة تستلزم ما تستلزم من صفات جليلة أخرى كالقوة والقدرة والقهر والجبروت والملكوت وشدة البطش وغيرها.

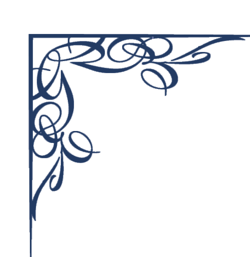
فكونه العلي يقتضي عدم خذلانهم.

وكون الكبير يقتضي عدم عجزه عن نصرتهم.

فتحصل للمؤمن بذلك سكينة وطمأنينة بانتصار الحق وعلوه وغلبة جند الله تعالى.

وهذه التهيئة النفسية لها أثر عظيم في حسن الإعداد للجهاد، وأخذ العدة له، والتبصر بمواضع قوة الخصم ومصادر إمداده، فيوجه عنايته إليه.

٨: أن من تمحّض للحقّ، وكان دفعه لمحض الباطل شرف بالنسبة إلى حزب الله تعالى وكان وليّا من أولياء الله فإنّ الله تعالى هو الحق، وهو يتولّى أهل الحق.

الباب الخامس: أسلوب الحِجَاج

الحِجَاجُ بكسر الحاء مصدر حاجَجْتُ أحاجُّ وأُحَاجِجُ مُـحَاجَّةً وحِجَاجاً.

وحجَجْتُه أي غلبتُه بالحُجَّة، ومنه ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فحَجَّ آدمُ موسى».

والحجَّةُ البرهان على الصواب، والمحاج هو الذي يحاول إقامة الحجج والبراهين على صحّة قوله وإبطال قول خصمه.

وأسلوب الحِجاج من الأساليب التي اعتنى بها العلماء عناية بالغة في مقام الانتصار للشريعة، والردّ على المخالفين من أهل الملل والنحل، وكشف الشبهات، وتفنيد الحجج الباطلة، وتقرير الحقّ بأدلّته.

وهذا الأسلوب يتطلّب معرفة حسنة بأصول الدين، ودراية بمنهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال ومعاملة المخالفين، وبصيرة بأقوال المخالفين وأصولها، وطرق ردّها.

وهو من مقامات الجهاد بالقرآن لما يترتب عليه من إظهار حجج القرآن وتبيينها، وإقامة البراهين على بطلان ما يخالف هدى القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾.

ومن فُتح له باب الإحسان في هذا الأسلوب فهو من المجاهدين بالقرآن.

آداب أسلوب الحجاج:

لهذا الأسلوب أحكام وآداب على المفسّر أن يعتني بمراعاتها، وقد بيّنتُ بعضها في رسالة تقدمت الإشارة إليها بعنوان: تأملات في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾.

طرق تحسين أسلوب الحجاج:

أسلوب الحجاج قائم على تقرير الأدلّة، والإلزام بالحجة، وتزييف الباطل، ولذلك يُحتاج فيه إلى مخاطبة العقل للتبصير، ومخاطبة القلب للتأثير.

والمحاجُّ البارع هو الذي يُحسن الجمع بينهما.

ولتحسين هذا الأسلوب ينبغي للمفسّر أن يعتني بدراسة حجج القرآن، وطرق تقريرها، وأن يعتني بقراءة رسائل الأئمة التي كتبت بهذا الأسلوب وردودهم على المخالفين ومناظراتهم، وأن يقتبس من طرائقهم ما تتقوّى به حجّته، وينمّي به ملكتَه في الحجاج.

وأن يتعرَّف **الأدوات العلمية التي يستعملها العلماء في الحجاج**، ومن أشهرها: **السبر والتقسيم**، و**المنع والتسليم**، و**براعة التعليل**، و**إعمال المفهوم**، و**القول بالموجَب**، و**الإضراب والانتقال**، و**المعارضة والمناقضة**، و**المجاراة والإعثار**، و**التبكيت والتشنيع**.

وغير ذلك من الأدوات التي تُستعمل في الجدالِ الحسن لإظهار الحقّ ودمغ الباطل.

وهذه الأدوات العلمية من أهم ما يحتاج إليه طالب العلم في المناظرة والمجادلة، ويستعمل العلماء بعضها في عدد من العلوم مع اختلاف في التطبيق في كل علم.

- **فالسبر والتقسيم** في علم الجدل والمناظرة يراد به حصر الأقوال الممكنة في المسألة بطريقة من طرق الحصر كالقسمة العقلية أو الاستقراء التام أو غيرهما؛ وهذا الجزء هو التقسيم، والسبر أن يأتي إلى كلّ قول منها فيبطله بما يظهر به بطلانه إلى أن يبقى قول واحد هو الحق.

وتسمى هذه الطريقة أيضاً بالتقسيم والترديد، وتسمى في علم المنطق بالشرطي المنفصل.

ويمثّل جماعة من العلماء لهذه الأداة بقول الله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ **فحصرت الاحتمالات في ثلاثة**؛ الأولان مذكوران بما يبطلهما وهو الاستفهام الإنكاري، والثالث هو الحق.

فالاحتمال الأول: أنهم وُجدوا من غير خالق لهم، وهذا ظاهر البطلان؛ متفق على بطلانه.

والاحتمال الثاني: أنهم هم الذين خلقوا أنفسهم، وهذا باطل أيضاً ببداهة العقل أن المعدوم لا يخلق نفسه.

فتعيّن **الاحتمال الثالث**، وهو أنّ لهم خالق من غير أنفسهم، وهو الله جلّ جلاله.

فهذا هو المراد بالسبر والتقسيم هنا، والأصوليون لهم اصطلاح خاص في السبر والتقسيم، وهو عندهم من طرق استنباط علة الحكم، ويكون

بحصر أوصاف الأصل المقيس عليه بطريقة من طرق الحصر ثم إبطال ما لا يصلح علة بطريقة من طرق الإبطال، وهو من أنواع تنقيح المناط.

وهذه الأداة العلمية مستعملة في عدد من العلوم، استعملها الفقهاء في مناظراتهم وردودهم، واستعملها النحاة والصرفيون في مسائل الخلاف وفي علل النحو والتصريف كما فعل ابن الأنباري وابن الحاجب وغيرهما.

واستعملها عدد من الأئمة في مناظراتهم لأهل البدع والأهواء.

وهي طريقة عقلية لإقامة الحجة وإبطال الاحتمالات الباطلة ليتعيّن الاحتمال الصحيح، ولهذه الطريقة أصل في الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

ومن الأمثلة الحسنة لتوضيح تطبيق هذه الأداة في التفسير ما ذكره الأمين الشنقيطي رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

قال رحمه الله: (والتقسيم الصحيح في هذه الآية الكريمة يحصر أوصاف المحل في ثلاثة، والسبر الصحيح يبطل اثنين منها ويصحح الثالث.

وبذلك يتم إلقام العاص بن وائل الحجر في دعواه: أنه يُؤتى يوم القيامة مالاً وولداً.

أما **وجه حصر أوصاف المحل في ثلاثة** فهو أنا نقول: قولك إنك تُؤتَى مالاً وولداً يوم القيامة **لا يخلو مستندك فيه من واحد من ثلاثة أشياء:**

الأول: أن تكون اطلعت على الغيب، وعلمت أن إيتاءك المال والولد يوم القيامة مما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

والثاني: أن يكون الله أعطاك عهداً بذلك، فإنه إن أعطاك عهداً لن يخلفه.

الثالث: أن تكون قلت ذلك افتراءً على الله من غير عهد ولا اطلاع غيب.

وقد ذكر تعالى القسمين الأولين في قوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾، مبطلاً لهما بأداة الإنكار، ولا شك أن كلا هذين القسمين باطل؛ لأن العاص المذكور لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهدا، فتعين القسم الثالث وهو أنه قال ذلك افتراءً على الله، وقد أشار تعالى إلى هذا القسم الذي هو الواقع بحرف الزجر والردع وهو قوله: ﴿كَلَّا﴾، أي: لأنه يلزمه ليس الأمر كذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً، بل قال ذلك افتراءً على الله، لأنه لو كان أحدهما حاصلاً لم يستوجب الردع عن مقالته كما ترى)ا.هـ.

وقد توسّع رحمه الله في التمثيل لهذه القاعدة وشرحها شرحاً حسناً في تفسيره لسورة مريم؛ فليراجعها من أراد الاستزادة.

- **وأمّا طريقة المنع والتسليم**؛ فهي طريقة مناسبة للرد على اعتراضات المبطلين على دلالات الأدلة الشرعية ونفيها وتأويلها ودفع ما يوردونه من الشبه، وهذه الطريقة استعملها بعض الأئمة في الردّ على أهل البدع، وقد أكثر الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - من استعمالها في شرحه للعقيدة الواسطية، ومن أمثلة ذلك قوله في الرد على نفاة صفة المحبة لله تعالى من المتكلمين بدعوى أن العقل لا يدلّ عليها.

قال رحمه الله: (ونحن نرد عليهم فنقول: نجيبكم عن الأول، وهو أن **العقل لا يدل عليها بجوابين:**

أحدهما: بالتسليم.

والثاني: بالمنع.

التسليم: نقول: سلمنا أن العقل لا يدل على المحبة، فالسمع دل عليها، وهو دليل قائم بنفسه، والله عز وجل يقول في القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، فإذا كان تبياناً، فهو دليل قائم بنفسه، (وانتفاء الدليل المعين، لا يلزم منه انتفاء المدلول)، لأن المدلول قد يكون له أدلة متعددة، سواء الحسيات أو المعنويات؛ فالحسيات: مثل بلد له عدة طرق توصل إليه، فإذا انسد طريق ذهبنا مع الطريق الثاني.

أما المعنويات، فكم من حكم واحد يكون له عدة أدلة، وجوب الطهارة للصلاة مثلاً فيه أدلة متعددة.

فإذاً، إذا قلتم: إن العقل لا يدل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، فإن السمع دل عليه بأجلى دليل وأوضح بيان.

الجواب الثاني: المنع: أن نمنع دعوى أن العقل لا يدل عليها، ونقول: بل العقل دل على إثبات المحبة بين الخالق والمخلوق، كما سبق)ا.هـ.

وتدرّب طالب العلم على إحسان استعمالها يفيده كثيراً في الردّ على إيرادات أصحاب الشُّبَه والأقوال الباطلة.

- **وأمّا براعة التعليل**؛ فالمراد بها هنا أمران:

أحدهما: أن يستخرج المناظر علّة قول خصمه، ويتعرّف الحامل له على قوله؛ فإنّ ما يورده المبطل من الأدلة والشبه والاعتراضات شيء، والحامل له على ذلك قد يكون شيئاً آخر؛ فالتعرف على العلة الحقيقية يفيد تركيز القول على ما تُعالج به هذه العلة، واستعمال الأسلوب الأمثل لها، واختصار كثير من الكلام، وهذا له أمثلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾.

والمعنى الآخر: أن يورد المبطل لشبهته حججا فيستخرج المناظر العلّة التي بنى عليها هذا المبطل حججه، وينقضها، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾ فهذه ثلاثة إيرادات بنوها على أنهم نزّلوا أنفسهم منزلة الخبير بما يأتي من عند الله؛ فحكموا على ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم بأنّه إفك مفترى، وأنه إنما يريد أن يصدّهم عما يعبد آباؤهم وهذا تعريض باتّهامه بطلب صرف الوجوه إليه، وأن تأثيره على من اتّبعه من المؤمنين إنما هو سحرٌ سحرهم به؛ وهذا كِبْرٌ بالغ نقض الله عليهم أساسه بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ فلم يأتهم رسول قبل النبي صلى الله عليه وسلم

وليس لديهم كتاب من عند الله يحكمون به على ما خالفه بأنه إفك مفترى؛ فسقطت حججهم وادعاءاتهم لما سقط أصلها الذي بُنيت عليه.

- ومن الطرق المتّصلة بهذه الطريقة: **طريقة نقض العلّة**؛ وهي أن يبني المبطل حجّته على علّة؛ فينقضها المجادل بالحق فينكشف زيف المبطل، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾.

- **وأمّا إعمال المفهوم**؛ فالمفهوم منه مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة؛ فأمّا مفهوم الموافقة فيسميه بعضهم فحوى الخطاب، ويستفاد منه إثبات حكم المسكوت عنه بما يوافق حكم المنطوق، ويمثّلون له بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ على تحريم الإيذاء بما هو أعظم من قول (أف) كالسبّ والشتم والمضارّة.

وأما مفهوم المخالفة ويسمّى (دليل الخطاب) فيستفاد منه استخراج حكم للمسكوت عنه يقابل حكم المنطوق، ويتعلق بمقابل معناه؛ كما في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾، قال الأمين الشنقيطي: (صرح في هذه الآية بأن هذا القرآن ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾، ويفهم من مفهوم الآية - أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب - أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾، وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ

سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ الآيتين)ا.هـ.

وإعمال مفهوم المخالفة له شروط على المناظر أن يراعي تحققها، وله أنواع أوصلها بعضهم إلى عشرة، وهي: مفهوم الصفة، ومفهوم الشرط، ومفهوم العلة، ومفهوم اللقب، ومفهوم الاستثناء، ومفهوم العدد، ومفهوم الزمان، ومفهوم المكان، ومفهوم الحصر، ومفهوم الغاية.

وقد جمعها ابن غازي رحمه الله في بيت واحد فقال:

صِفْ واشترِطْ عَلّلْ وَلَقِّبْ ثُنيا   وعُدَّ ظرفين وحصراً إغْيا

وشرحها يستدعي درساً خاصا، والمقصود التنبيه على استعمال المفسرين لهذه الأداة في استخراج المعاني وأحكام المسائل والرد على المخالفين.

- **وأما القول بالموجَب**؛ فله اصطلاح خاص عند الأصوليين، وله كذلك اصطلاح خاص عند البلاغيين، والمراد به هنا أن تقول بموجَب قول الخصم لكن تعكس القضية عليه، وقد مثّل له ناصح الدين ابن الحنبلي في كتابه "استخراج الجدل من القرآن" بقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ القول بالموجب ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تقديره: (نريدُ أنْ نصدَّكُم عما كان يعبدُ آباؤُكم) ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وقد شرحه الأستاذ الجليل محمد الطاهر ابن عاشور شرحا حسناً فقال: (قول الرسل ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جواب بطريق القول بالموجَب في علم آداب البحث، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غير تام الإنتاج، وفيه إطماع في الموافقة، ثم كرَّ على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾، وهذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر، فليس قول الرسل ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تقريرا للدليل، ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدل في الاستنتاج من دليله، ومحل البيان هو الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، والمعنى: أن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها فالبشر كلهم عباد الله والله يمن على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم)ا.هـ.

ومثّل له ابن الحنبلي أيضا بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

- **وأما الإضراب** في اللغة فمعناه الكفّ والإعراض، وهو في علم البيان وعند النحاة على نوعين: **إضراب إبطالي** و**إضراب انتقالي**:

- **فأما الإضراب الإبطالي**؛ فيراد به إبطال ما قاله المردود عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟

﴿ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وأما الإضراب الانتقالي؛ فهو أن تنتقل من الحديث عن أمر إلى الحديث عن غيره من غير إبطال الأمر الأول، ومثاله قول الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٦٥ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ٦٦﴾.

ويستفاد منه في علم الجدل الإضراب عن دعوى الخصم لإبطالها بإيراد آخر، ومن أمثلته قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾.

فأضربَ عن إيراده بأنه يحيي ويميت، وأورد عليه ما يظهر به بطلان دعواه.

- **وأما المعارضة والمناقضة**؛ فبينهما تناسب؛ **أما المعارضة** فأن تورد على دعوى الخصم اعتراضاً يتحيّر الخصم في جوابه، حتى يتبيّن له عدم صحّة دعواه، ومن أمثلة المعارضة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ٦٣﴾؛ فأورد عليهم إيرادا عارَض به دعواهم في أصنامهم أنها آلهة؛ فإن زعموا أنَّ كبيرهم عاجزٌ عن ذلك تبيّن بطلان اعتقادهم فيه، وإن زعموا أنَّه من فعله أقروا بقبح الشرك؛ فإذا كان هذا الكبير لا يرضى أن يُشرك به؛ فكيف يظنّون أنَّ الله تعالى يرضى أن يُشرَك به.

ومن أمثلته ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل في محنته المشهورة؛ أن المعتزلة قالوا له: ما تقول في القرآن وكلام الله، أهو الله أم غير الله؟

عارضهم بالعلم؛ وقال لهم: (ما تقولون في علم الله، أهو الله أم غير الله؟).

وقال في موضع آخر: (ولهذا لما سألوا الإمام أحمد في المحنة عن القرآن: أهو الله أو غيره؟ وإذا كان غيره كان مخلوقاً- عارَضَهم بالعلم فسكتوا) ا.هـ.

- وأما المناقضة فهي أن تنقض الدعوى بما يبطل مقدماتها، ويبيّن خطأ نتيجتها، ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾.

فنقض دعواهم نقضاً تاما لا يبقى معه احتمال لصحة الدعوى ولا تردد في بطلانها، وهذا من بديع النقض، وقد أحسن الطاهر ابن عاشور في بيانه فقال: (﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ جملة مستأنفة، وهذا شروع في الإخبار بعظيم قدرة الله تعالى، وهي تفيد مع ذلك تقوية التنزيه في قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾ فتتنزل منزلة التعليل لمضمون ذلك التنزيه بمضمونها أيضا، وبهذا الوجه رجح فصلها على عطفها؛ فإن ما يصفونه هو قولهم: إن له ولدا وبنات، لأن ذلك التنزيه يتضمن نفي الشيء المنزه عنه وإبطاله، فعلل الإبطال بأنه خالق أعظم المخلوقات،

دلالة على القدرة؛ فإذا كنتم تدّعون بنوّة الجن والملائكة لأجل عظمتها في المخلوقات، وأنتم لا ترون الجن ولا الملائكة؛ فلماذا لم تدّعوا البنوة للسماوات والأرض المشاهدة لكم وأنتم ترونها وترون عظمها؟!! فهذا الإبطال بمنزلة النقض في علم الجدل والمناظرة).

وقد أطال رحمه الله في تفصيل ذلك، والمقصود التمثيل على طريقة نقض الدعوى، وبيان الفرق بينها وبين المعارضة.

واختيار إحدى الطريقتين يعتمد على مناسبة الحال، وقوة استحضار الحجة.

- **وأمّا المجاراة والإعثار**؛ فيراد بها أن يُلقِي المحاجُّ إلى خصمه من الأسئلة والاستدراج ما يقوده به إلى موضع يتبيّن فيه بطلان دعواه؛ وهذه الطريقة إنما يقوم بها الحاذق في المناظرة، فصاحب الباطل يعبّر عن باطله بزخرف القول، ويلبس الحقّ بالباطل؛ فليتبس أمره على من لا يتبيّن حقيقته؛ وقد يكون لديه اندفاع شديد للدعوة إلى باطله؛ فمن الحكمة في بعض الأحوال أن يجاريه المناظر مجاراة موجّهة إلى الموضع الذي يتبيّن فيه خطؤه وبطلان دعواه، ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾.

قال ابن القيّم رحمه الله: (فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل؛ فإنهم قالوا أولاً: إذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا؟!!

فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب فهلا كنتم خلقا جديدا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد؟!! أو ما هو أكبر في صدوركم من ذلك؟

فإن قلتم: لنا رب خالق، خلقنا على هذه الصفة، وأنشأنا هذه النشأة التي لا تقبل البقاء، ولم يجعلنا حجارة ولا حديدا؛ فقد قامت عليكم الحجة بإقراركم؛ فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقا جديدا؟!!)ا.هـ.

وقد بنى الإمام أبو عبد الله الأذرمي مناظرته لأحمد ابن أبي دؤاد في فتنة خلق القرآن على هذه الطريقة؛ وكانت تلك المناظرة بحضرة الواثق، وقد رويت بألفاظ متقاربة، ومما تلخّص من رواياتها (أن الأذرمي جيئ به إلى مجلس الواثق ليناظر ابن أبي دؤاد في خلق القرآن فإن أجابه وإلا قُتل كما قتل جماعة من العلماء في تلك الفتنة، وكان الواثق حَنِقاً على الأذرمي حتى إنه لما جيء بالأذرمي من السجن ليحضر مجلس المناظرة دخل فقال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين.

فقال الواثق: لا سلّم الله عليك.

فقال: يا أمير المؤمنين، بئس ما أدّبك مؤدّبك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾.

ثمّ دعاه الواثق لمناظرة ابن أبي دؤاد فقال الأذرمي: يا أحمد بن أبي دؤاد، إلى ما دعوت الناس ودعوتني إليه؟

فقال ابن أبي دؤاد: إلى أن تقول: القرآن مخلوق؛ لأن كل شيء دون الله مخلوق.

قال الأذرمي: أخبرني يا أحمد عن مقالتك هذه، أواجبة داخلة في عقد الدين، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه ما قلت؟

قال ابن أبي دؤاد: نعم.

قال الأذرمي: يا أحمد أخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله تعالى إلى عباده، هل ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أمر الله تعالى به في دينه؟

قال ابن أبي دؤاد: لا.

قال الشيخ: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: تكلم فسكت، فالتفت الشيخ إلى الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين، واحدة.

فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد، أخبرني عن الله تعالى، حين أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أكان الله تعالى الصادق في إكمال دينه، أم أنت الصادق في نقصانه، فلا يكون الدين كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي دؤاد.

فقال الشيخ: أجب يا أحمد، فلم يجبه، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، اثنتان.

فقال الواثق: اثنتان.

فقال الأذرمي: يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه، أعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم جهلها؟

قال ابن أبي دؤاد: علمها.

قال الأذرمي: فدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، ثلاث.

فقال الواثق: ثلاث.

فقال الأذرمي: يا أحمد، فاتسعَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ علمها كما زعمت، ولم يطالب أمته بها؟

قال ابن أبي دؤاد: نعم.

قال الأذرمي: واتسع لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟

فقال ابن أبي دؤاد: نعم).

وفي رواية (أنه قال له: ما تقول في القرآن؟

قال ابن أبي دؤاد: مخلوقٌ.

قال الأذرمي: هذا شيءٌ علمه النّبيّ -صلّى اللهّ عليه وسلّم- وأبو بكرٍ، وعمر، والخلفاء الرّاشدون، أم شيءٌ لم يعلموه؟

قال: شيءٌ لم يعلموه.

فقال: سبحان الله! شيءٌ لم يعلمه النّبيّ -صلّى اللهّ عليه وسلّم- علمته أنت؟

فخجل، فقال: أقلني.

قال الأذرمي: المسألة بحالها.

قال ابن أبي دؤاد: نعم، علموه.

فقال: علموه، ولم يدعوا النّاس إليه؟

قال: نعم.

قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟).

فكانت تلك المناظرة من أسباب رفع محنة القول بخلق القرآن؛ وهي مناظرة مشهورة رويت بأسانيد وألفاظ مختلفة، وعمادها مجاراة صاحب الباطل وتوجيهه إلى الموضع الذي يتبيّن به عثار قوله.

- **وأما التبكيت** فيراد به تقريع صاحب الدعوى الباطلة بما يعرّفه بخطئه ويشعره بقبح دعواه، ويعقبه الحسرة والندم إن كان في قلبه بقيّة حياة، وفي مسند الشافعي وسنن أبي داوود والبيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتي بشارب خمر؛ فقال: اضربوه، فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب وحثوا عليه من التراب، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «بكّتوه» فبكّتوه، ثم أرسلوه.

وقد ورد تفسير هذا التبكيت في رواية عند أبي داوود أنهم أقبلوا عليه يقولون: ما اتقيت الله؟! ما خشيت الله؟! وما استحييت من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

قال أبو سليمان الخطابي: (التبكيت هاهنا التقريع باللّسان وهو أن يُقال لَهُ: أَمَا اتّقيْتَ الله أما خَشِيتَ اللهَ أما استَحيَيتَ من النّاس ونحو هذا من الكلام).

والمقصود أن التبكيت أسلوب يخاطب به المذنب والمبطل ليستقبح ذنبه وباطله، ويذهب عنه الطيش والغرور، فقد يحمله ذلك على التبصر فينيب ويرجع، وقد يكابر فيكون في التبكيت ما يخزيه ويقطع حجّته.

والتبكيت له أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾.

وقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾.

والمقصود أن من المبطلين من يكون تبكيته أنفع له وأقطع لحجته من مجادلته؛ فإن في التبكيت مخاطبة للقلب ووعظاً له، ودعوة لصاحب الدعوى الباطلة أن يتفكّر في نفسه وفي مقالته وفيما أورد عليه من التبكيت ليكفّ عن دعواه الباطلة، ويتبيّن قبحها.

- **وأما التشنيع** على المبطل فهو بيان شناعة قوله وقبح مقالته، وتعظيم خطرها عليه، واستعمال ما يناسب ذلك من العبارات؛ فإنّ المبطل يزيّن قوله بزخرف القول ويحاول تسويغه وتهذيبه وإظهاره في مظهر الخير ورعاية الأصلح حتى يغترّ به من يغتر، فإذا عُرّي قوله عن زخارفه، وأظهرت مفاسد لوازمه وآثاره انكشفت حقيقته وتبيّنت شناعته، والتشنيع إذا كان بالحق فهو نافع جداً في التأثير على صاحبه وعلى من كان مغتراً بقوله، وعلى غيرهم حتى يحذروا تلك المقالة الباطلة وتستقر في نفوسهم شناعتها.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾.

وفي هذا غاية ما يكون من التشنيع الذي ترتجف له القلوب الحية.

وقال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

والمقصود من ذكر هذه الأدوات العلمية في دورة «أساليب التفسير» وشرحها حثُّ طلاب علم التفسير على العناية بها والتدرب عليها؛ ولا سيّما من يريد الكتابة بأسلوب الحجاج الشرعي وكشف الشُّبَهِ والردّ على المبطلين؛ وأن يستعمل منها ما تدعو الحاجة إليه في كل موضع بحسبه.

ومن رُزق حسن المعرفة بهذه الأدوات، وجودة البيان عنها، وصدق النية والتزام العدل رجي أن ينفع الله بما يكتبه في هذا الباب، وأن يبارك فيه.

عناية العلماء بأسلوب الحجاج الشرعي:

للعلماء عناية بالغة بأسلوب الحجاج لكثرة ما تدعوهم الحاجة إلى إقامة الحجج والبراهين، على تبيين أصول الدين، والرد على المخالفين والمبطلين، وقد علموا أن أقرب الطرق إلى ذلك وأنفعها بيان حجج القرآن وتقريبها وشرحها والجهاد بها.

ومن أمثلة ما كتب بهذا الأسلوب:

١. تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ...﴾ لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢. تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾، لابن القيّم.

٣. تفسير قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥...﴾ لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

مثال:

١. تفسير قول الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ...﴾.

التطبيق الرابع:

- اكتب رسالة تفسيرية مختصرة بأسلوب الحِجَاج.

تفسير قول الله تعالى:
﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ...﴾

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [المائدة: ٧٣-٧٦].

تضمنت هذه الآيات الكريمات من الحجج القاطعة، والآيات البينات ما أظهر الله به بطلان ما اعتقدته طوائف كثيرة من النصارى في عيسى بن مريم وأمّه عليهما السلام، واتخاذهم إياهما إلهين من دون الله، وزعمهم أن الله ثالث ثلاثة.

وقد صرَّف اللهُ الآياتِ في خطابهم تنبيهاً وتعريفاً، وتبصيراً وتذكيراً، وترغيباً وترهيباً، ببيان بديع محكم، وإلزام بالحجة الظاهرة التي لا يردّها إلا مكابرٌ معاند.

ومن تأمّل هذه الآيات بقلب حيّ منيب تبيّن له ما يفيد اليقين ببطلان مقالاتهم الكفرية، وضلالهم عن الصراط المستقيم.

وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: الحكم بتحقق كفر قائلي هذه المقالة الشنيعة، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾.

فحرف (قد) مفيد للتحقيق، واللام مؤكّدة لهذا الحكم.

وهو حكم إلهيّ قُدّم في أوّل عرض القضيّة ليقذف في نفسِ المخاطَب حكمها، وشناعة جرم أصحابها، وليقطع عليه جميع محاولات البحث عن تخريجٍ لمقالتهم، أو تبريرٍ لها؛ إذ بيّن الله تعالى أنَّ حكمها الكفر المتحقق الذي لا ريب فيه.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ وهذا نفي قاطع بأسلوب الاستغراق والحصر، (ما) نافية، و(من) للاستغراق، أي ليس في الكون كلّه إلا إله واحد.

وكلّ ما يُدعى من دون الله فإنّما عُبد بغير حقّ، فالإله الحق لا يكون إلا واحداً، و ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهذا يبطل التثليث.

والوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وهذا فيه تقريع شديد، وتشنيع على قائلي هذه المقالة الكفرية.

وقال: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ ولم يقل: (ليمسنّهم) لتأكيد بيان كفر قائلي هذه المقالة، وليشمل الحكم كلَّ من قال مقالة كفرية منهم غير هذه المقالة؛ فإنَّ لضُلّال النصارى أقوالاً كفرية ذكرها الله تعالى عنهم في القرآن؛ فمنهم من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم، ومنهم من قال: المسيح ابن الله، ومنهم من قال: إن الله ثالث ثلاثة.

فهذا الحكم شامل لكلّ مقالاتهم الكفرية.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ ..﴾ فيه فتح لباب النجاة من هذا الكفر ما داموا في دار الحياة الدنيا قبل أن تقبض أرواحهم.

وهذا له وقع عظيم على نفس المذنب الذي في قلبه جذوة من إرادة الحقّ ليتدارك نفسه، ويسلك سبيل النجاة.

والوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾؛ وهذا فيه تقرير أنّهم أذنبوا ذنباً عظيماً بهذه المقالة الكفرية؛ يستوجب التوبة والاستغفار.

وتأمل سعة رحمة الله عز وجل وعظيم حلمه كيف دعاهم - وقد قالوا هذه المقالة الشنيعة - إلى التوبة بأجمل عرضٍ وألطفه: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥ﴾ ثم ذكر ما يرغبهم في ذلك ويزيل اليأس والقنوط من قلوبهم إن صدقوا التوبة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ كثير المغفرة، واسع المغفرة، لا يستعظمه ذنبٌ أن يغفره، ورحمته وسعت كل شيءٍ، وعمت كل حي، وفي ضمن ذلك وعدهم بالمغفرة والرحمة والعفو عما بدر منهم إن هم تابوا إليه واستغفروه.

فإذا علم العبد ذلك تحركت دواعي الرجوع إلى الله في قلبه، ولم يقنط من رحمة الله عز وجل مهما بلغت ذنوبه.

والوجه الخامس: أنَّ هذا العرض الكريم اللطيف أتى بعد التقريع الشديد ليجتمع في هذه الآيات خطاب الترهيب والترغيب، وخطاب العقل والقلب؛ فبصَّرهم وذكَّرهم، ووعظهم وزجرهم، ثم فتح لهم باب

المغفرة والتوبة التي تجبّ ما قبلها؛ فلا يتخلّف عن هذه الدعوة إلا شقيّ محروم مكابر مستحقّ للعذاب الشديد.

والوجه السادس: تبصيرهم بالأدلّة التي يتبيّن بها لكل عاقل بطلان غلوّهم في عيسى ابن مريم وأمّه، من غير أن ينقص قدرهما، ولا أن يسلبهما ما مَنَّ به عليهما من الفضل العظيم، والمنزلة العالية بين عباده، بل أثبت لعيسى الرسالةَ ولأمّه الصديقية.

والوجه السابع: قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فهو رسولٌ من جملة رسلٍ ماتوا وهو على إثرهم سيموت، والإله الحق إنما هو الحي الذي لا يموت.

والوجه الثامن: أنَّه رسولٌ مكلَّف بأداء الرسالة؛ يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ كما هو ظاهر مستفيض لديهم من كلامه ووصاياه، ولو كان إلهاً يستحقّ العبادة لأمر بعبادة نفسه لا بعبادة غيره.

والوجه التاسع: أن الرسل أعظم الناس عبادة لربّهم وافتقاراً إليه، وهذا أمر معلوم علماً قطعياً من أحوالهم وأخبارهم، والعابد محتاج إلى إلهه الذي يعبده، والمحتاج لا يمكن أن يكون إلهاً، إنما إلههم الله الغنيّ الحميد الذي تحتاج إليه جميع المخلوقات ولا يحتاج إلى أحد.

والوجه العاشر: قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ **وفي هذا عدة أدلةٍ:**

- **أولها:** أنه مخلوقٌ كائنٌ بعد أن لم يكن، فلم يوجد إلا بعد ولادة أمه له؛ ومثل هذا لا يصلح أن يكون إلهاً؛ فإن الإله الحق إنما هو الأول الذي ليس قبله شيء.

- **الثاني**: أنه محتاجٌ في أصل حياته إلى غيره فوجوده إنما كان بواسطة أمه؛ والإله الحق إنما هو الحي القيوم الذي قيام كل شيءٍ به، الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحدٍ سواه طرفة عينٍ.

- **الثالث**: أنه مولودٌ؛ والإله الحق إنما هو الصمد الذي لم يلد ولم يولد.

- **الرابع**: أنه خارجٌ من المكان الذي قد علموا؛ ومثل هذا لا يصلح أن يكون إلهاً؛ فالإله الحق إنما هو القدوس السلام المتنـزه عما لا يليق بجلاله وعظمته.

- **الخامس**: أن أمه صديقةٌ؛ فهي أمةٌ عابدةٌ فقيرةٌ إلى من تعبده، والفقير لا ينتج إلا فقيراً.

والوجه الحادي عشر: قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ **وفي هذا عدة أدلةٍ:**

- **الأول**: أن كونهما يأكلان الطعام دليلٌ على حاجتهما وفقرهما إليه، والفقير المحتاج لا يصلح أن يكون إلهاً.

- **الثاني**: أن العقلاء قد علموا أن الذي يأكل الطعام له جوفٌ وآلاتٌ تهضم الطعام، وقنواتٌ يسير فيها الطعام، والإله الحق إنما هو الصمد الذي لا جوف له، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر.

- **الثالث**: أن الذي لا يستطيع تصريف الطعام داخل جسده وتسييره في قنواته، وإيصال كل موضعٍ من جسمه ما يحتاج إليه من الغذاء؛ وإنما الذي يسيره ويصرفه فيه غيره كيف يستطيع أن يدبر شئون الخلائق، ويجيب دعواتهم، ويعلم سرائرهم وأحوالهم؟!!

إنما إلههم الملك القيوم الذي قام بشؤونهم ووسعهم علمه وحفظه ورحمته.

- **الرابع**: أن العقلاء قد علموا أن الذي يأكل الطعام لا بد له من إخراجه بعد هضمه، والذي تخرج منه هذه الفضلات المستقذرة لا يصلح أن يكون إلهاً؛ بل الإله الحق إنما هو القدوس السلام المتنـزه عن مثل هذا وسائر ما لا يليق بجلاله وقدسيته.

- **الخامس**: أن الذي يأكل الطعام عرضةٌ لأن يأكل ما يضره أو يسيء أكل ما فيه نفع فيمرض ويسقم؛ ومثل هذا لا يصلح أن يكون إلهاً.

فهذه الأدلة البينة التي نبه عليها بقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ قاطعة ببطلان ما زعموه من إلهية عيسى وأمه.

والوجه الثاني عشر: قوله تعالى بعد هذا البيان البديع: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾، وهذا فيه بيان للسبب الذي صرفهم عن الحقّ بعدما تبيّن لهم، وأنهم مأفوكون بإفكٍ عظيم؛ أضاعوا حياتهم وخسروا سعادتهم باتّباعهم هذا الإفك.

ولفظ (الإفك) هنا **جامع بين معنيين**: **الكذبِ العظيم**، و**الصرفِ عن الحقّ**.

فالإفك هو الفرية الكبيرة.

وتقول العرب: أرض مأفوكة، أي محرومة من المطر، قد صُرف المطرُ عنها إلى غيرها.

ويقولون: أُفِكَ الرجُلُ عَن الخيْرِ أَي صُرف عَنهُ؛ فانقلب خائباً.

والوجه الثالث عشر: التبكيت في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ ولهذا التبكيت وقع شديد على النفس لمن عقل معناه، إذ كيف يرضى المرء لنفسه أن يُحرم الخير والسعادة بسبب اتّباع من يخادعه ويزيّن له الطريق المفضية إلى النار حتى يدخلها.

والوجه الرابع عشر: عدم النصّ على ذِكْرِ من أَفكَهُم وصَرَفَهُم عن الحقّ والهدى وما فيه نجاتهم وسعادتهم، ليشمل ذلك كلّ مشترك في تضليلهم وخداعهم وصرفهم عن الحقّ، وليتفكّروا في كلِّ سبب أدّى إلى ضلالهم وانحرافهم عن الصراط المستقيم.

ومن تأمّل ذلك وجد أن أعظم أسباب انحرافهم:

- اتّباعهم لخطوات الشيطان وتضليله.
- واتّباعهم لأهوائهم المردية، ورغباتهم المخزية.
- وإعراضهم عن الحقّ البيّن الذي أتاهم من الله تعالى.
- وطاعتهم لمن فَسَدَ من أحبارهم ورهبانهم ومعظّميهم الذين زيّنوا لهم تلك المقالات الكفرية وأمروهم باعتقادها واتّباعهم عليها.

فهذه من أعظم الأسباب التي أُفكوا بها عن الحقّ، وخُدِعُوا بها عن سلوك سبيل الفوز والسعادة.

والوجه الخامس عشر: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فإن العبد العاقل إنما يعبد من يجلب له النفع ويدفع عنه الضر، وليس هذا لغير الله تعالى؛ فهو النافع الضار، وغيره إنما ضرره ونفعه بمشيئة الله تعالى، وهو مربوبٌ مدبرٌ، ناصيته بيد ربه لا

يستقل بنفعٍ ولا ضر؛ فمن الحماقة عبادة من هذا شأنه!!

والوجه السادس عشر: ما دلّت عليه هذا الآية من التنبيه على ما عرفوا من أنَّ اليهود قد همّوا بقتل عيسى عليه السلام، وأنَّ عيسى لم يكن له طاقة بقتالهم ولا بدفعهم عن نفسه ولا تحصين أتباعه منهم، فلم يكن يملك الضرّ لأعدائه ولا النفع لأتباعه، وإنما الذي بيده النفع والضرّ هو الله تعالى، فكيف يزعمون أنّه إله من دون الله أو أنّه ابن الله.

والوجه السابع عشر: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ يسمع دعاءهم ويعلم أحوالهم، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم؛ وهذا هو الإله الحق، ليس الذي لا يسمع دعاء عابديه ولا يعلم أحوالهم.

فاستبدال عبادة الله تعالى الذي بيده النفع والضر وهو السميع العليم بعبادة من لا يملك لهم ضرا ولا نفعاً، ولا يسمع دعاءهم ولا يعلم أحوالهم من أعظم الجهل والسفه.

والوجه الثامن عشر: أسلوب الحصر في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ وهذان الاسمان الجليلان لو تفكّر العباد فيهما لعلموا أنه لا ينبغي أن يعبد غير الله تعالى، فهو الذي وسع سمعه جميع الأصوات، على اختلاف اللغات، وتعدد الدعوات وتزامنها، لا يشغله سمع عن سمع، ولا يخفى عليه شيء، يعلم قصد كلّ داعٍ بدعوته، ومطّلع على حاله ونيّته، ويسمع كلّ ما ينطق به، ويعلم كل ما يحدّث به نفسه.

وهذا لا يكون إلا لله تعالى؛ فكيف يُعبد غيره؟!!

والوجه التاسع عشر: ما تضمّنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ من الوعد باستجابة الدعاء لمن وحّد الله تعالى واستجاب لدعوته.

فيستجيب الله دعاء من يستجيب لدعوته؛ ويعرض عمن أعرض عن دعائه واستجابة دعوته، استجابة باستجابة، وإعراض بإعراض، والله تعالى يعلم حال المستجيبين والمعرضين.

ويوم القيامة يجزي الذين استجابوا أحسن الجزاء في جنات النعيم، ويعاقب المعرضين أشدّ العقاب في نار جهنّم وبئس المصير.

فرجع الأمر إلى أنّ كلَّ إنسان يكون حكمه بحسب ما يضع نفسه من دعوة ربّه له، وحجة الله قائمة على كلّ خلقه، فمن أطاع الله واستجاب لدعوته سعد وفاز، ومن أعرض فلا يلومنّ إلا نفسه.

والوجه العشرون: ما تضمنته هذه الآيات الجليلة من الدلالة على أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ولو تأمّلت كلَّ وجه من الأوجه المتقدّمة وجدت أنَّه من آثار بعض أسماء الله وصفاته.

فانظر كيف اجتذب القلوب إلى عبادته وتوحيده بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وانظر إلى كمال حجة الله وإحكامها، حيث لا يبقى بعدها لذي باطل ما يستمسك به.

وفقني الله وإياكم، لحسن تدبر كتابه الكريم، وتلاوته حق تلاوته، وفقه حججه، ونصرة دينه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.





الباب السادس: الأسلوب البياني

الأسلوب البياني هو الأسلوب الذي يُعنى فيه صاحبه ببيان بلاغة القرآن، والتعريف بسمو ألفاظه، وسعة معانيه، وائتلافها وعدم اختلافها، وتناسب الألفاظ والمعاني، وتبيين لطائف الفروق بين الألفاظ، واستخراج الحكم من اختيار بعضها على بعض، وتجلية معاني الأساليب والتراكيب، وبيان أسرار التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، والإظهار والإضمار، والالتفات في الخطاب، والإسهاب والاقتضاب، وبيان معاني الحروف والإطلاقات، إلى غير ذلك من المباحث البيانية التي يُعنى بها المفسّرون بهذا الأسلوب.

ثمرات التفسير البياني:

التفسير البياني لون من ألوان تبليغ معاني القرآن، والدعوة إلى الله تعالى بتمجيد كلامه، وبيان حسنه وعظمته، وذبّ الطعن عنه، ونفي الاختلاف فيه.

وله ثمرات جليلة:

منها: بيان سعة معاني القرآن وسمو ألفاظه وتسنّمه الذروة العليا من البيان.

ومنها: تقرير ائتلاف معاني القرآن وعدم اختلافها، والجواب عما يثيره بعض الطاعنين في بيان القرآن.

ومنها: الجواب عما يشكل على بعض العلماء والعامة من المسائل التي يرون في ظاهرها إشكالاً يسبق إلى أذهانهم يستحثّهم للسؤال عما يرفعه، وطلب الكشف عن المعنى الصحيح الذي لا إشكال فيه؛ فيحصل بالبحث والسؤال واستعمال الأدوات البيانية ما يفيد السائل بأكثر مما سأل عنه غالباً، ويعرّف بحسن بيان القرآن واتساق ألفاظه وائتلاف معانيه.

ومنها: أن الأدوات البيانية تفيد فوائد جليلة في تقرير الاستدلال لبعض أقوال المفسّرين وتقوية حجّتهم، وإعلال الأقوال الضعيفة وبيان ما يردّها، والترجيح بين أقوال المفسرين.

ومنها: التأثير بقوّة بيان القرآن بسبب ما يحصل من إدهاش المتلقّي بما يذهب حيرته، ويكشف له عن معانٍ بديعة كانت غائبة عنه؛ وهذا الاندهاش والانبهار له تأثير بالغ على بعض النفوس فتنقاد به ويؤثر فيها ما لا يؤثره الأسلوب الوعظي.

وسائل تحسين الأسلوب البياني

التفسير بالأسلوب البياني يستدعي أهلية علمية حسنة في علوم البلاغة وفقه اللغة ومعاني الحروف والمفردات وأوجه الإعراب والتصريف.

ويجب -مع ذلك- أن يكون التفسير البياني قائماً على قدر حسن من التأصيل العلمي في علم أصول التفسير وعلم العقيدة؛ لئلا يقود المفسِّرَ استحسانُه بعض ما يقرأ أو يخطر له من الأوجه البيانية إلى الخروج بقول باطل في التفسير أو مخالف لصحيح الاعتقاد.

ومما يعين على تحسين الأسلوب البياني:

١. دراسة مختصرات في علوم اللغة المتقدّم ذكرها دراسة حسنة يُعنى فيها بالأمثلة التطبيقية على مسائل التفسير، وهذا القدر مهمّ ليحصل للطالب تصوّر حسن ومعرفة جيدة بمسائل التفسير البياني، وليُحْسن فهمَ كلام المفسرين في هذا النوع من المسائل.

٢. قراءة التفاسير التي تُعنى بعلم البيان ومن أجودها "التحرير والتنوير" للطاهر ابن عاشور، و"تفسير أبي السعود"، و"روح المعاني" للألوسي، و"الكشاف" للزمخشري مع الاحتراز من اعتزالياته، و"نظم الدرر" للبقاعي مع الاحتراز مما فيه من التكلف والأغلاط في بعض المواضع، و"حاشية الطيبي على الكشاف"، و"حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي"، وغيرها.

٣. قراءة الرسائل التفسيرية التي يُعنى أصحابها بالتفسير البياني، والاجتهاد في محاولة محاكاتهم، واستعمال أدواتهم العلمية، وهي من أهمّ الأسباب المعينة على تنمية ملكة التفسير البياني.

٤. قراءة الكتب التي تعدّ أصولاً في علم البلاغة ككتابي عبد القاهر الجرجاني "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، و"أساس البلاغة" للزمخشري، و"الإيضاح" للقزويني، وغيرها، وهذه الكتب يحتاجها طالب العلم لبحث المسائل البلاغية وتفصيلها.

٥. قراءة الكتب التي تعنى بالبلاغة القرآنية؛ ويكثر أصحابها من ذكر الأوجه البيانية في آيات القرآن، ومن أجودها: "بديع القرآن" لابن أبي الإصبع المصري، و"سرّ الفصاحة" لابن سنان الخفاجي، و"التبيان في علم البيان" للطيبي، وغيرها.

٦. القراءة في كتب مُشْكِل القرآن؛ والتعرف على أنواع الإشكالات التي تُثار، وأصول الرد عليها، والأدوات العلمية التي يستعملها العلماء في الجواب عنها، وتكرار هذه المسائل ينمّي ملكة طالب العلم في التعرف على أسباب الإشكالات وطرق كشفها، ومن أجود تلك الكتب: "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة، و"أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل" لمحمد بن أبي بكر الرازي صاحب "مختار الصحاح"، و"تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء" لابن تيمية، و"دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب" لمحمد الأمين الشنقيطي.

٧. التمرّن على استخراج المسائل التفسيرية من الآيات؛ وهي من أهمّ المهارات المفيدة في تنمية ملكة الأسلوب البياني.

والمتأمل في رسائل العلماء المتقدمين في الأسلوب البياني يجد لديهم براعة في استخراج المسائل واستنتاج الفوائد والأحكام، فقد ذكر ابن القيّم في فصل له في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦...﴾ الآية عشرين مسألة.

- وذكر ابن الجزري في رسالة له في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي...﴾ الآية خمساً وأربعين مسألة.

- وذكر الزجاج في رسالته في تفسير البسملة ثمانين مسألة.

- وذكر السيوطي في رسالة له في تفسير قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ مائة وعشرين فائدة بلاغية.

وهذه البراعة في استخراج المسائل لها أثر كبير في التفطن لأوجه البيان والجواب عن الإشكالات التي تعرض لبعض السائلين.

وهذه الكتب وإن بدا للناظر أنها كثيرة بادئ الأمر إلا أن المعتني بالأسلوب البياني يجد في قراءتها ودراسة مسائلها من الفائدة والمتعة والوقوف على اللطائف والعجائب ما يذهب عنه كثيراً من عناء البحث والمدارسة؛ ويثري معرفته بمسائل التفسير البياني، ويُكْسبه التأصيل الحسن في هذا العلم.

المخاطَبون بالأسلوب البياني:

الخطاب بالأسلوب البياني له درجات فمنه ما يناسب أهل العلم وتستخدم فيه المصطلحات البيانية المعروفة لدى المعتنين بهذه العلوم.

ومنه ما يكون الغرض منه تفهيم العامة ببعض بيان القرآن فيوصى المفسّر أن يخلي كلامه مما لا تدرك العامة معناه من المصطلحات والعبارات التي تناسب الخاصة، وأن يجتهد في تيسير أسلوبه وتقريب عباراته لأفهام المخاطّبين، وأن يتجنب التعقيد والحشو.

عناية العلماء بالأسلوب البياني:

التفسير البياني نوع من أنواع التفسير اللغوي، وللعناية به أصل لدى السلف لكن كانت طريقتهم فيه التنبيهُ والإشارة، ولم يعرف الاسترسال في التفسير البياني إلا بعد نضج التأليف في علوم البلاغة وتقرُّر مصطلحاتها.

ولذلك قد يأخذ بعض البلاغيين الكلمة الواحدة من تفسير السلف فيفصّلون القول فيها تفصيلاً كثيراً ويطنبون في شرحه وتقريره وإظهار محاسنه.

ومن أمثلة ذلك:

قول قتادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: قال: «**أي من هذه الأمّة، يعني بذلك القلب: القلب الحيّ**». رواه ابن جرير.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قال: (قلبٌ يعقل ما قد سمع من الأحاديث الّتي عذّب اللهّ بها من عصاه من الأمم).

فهذا القول مبني على أصل لغويّ وهو أن العرب تُسمّي من لا ينتفع بالآلة باسم فاقدها؛ فيقال لمن لا يبصر الحق مع وضوحه: أعمى، ومن لا يسمعه: أصمّ، وقد قال الله تعالى في الكفار: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾.

فهذا المعنى الذي عبّر عنه بعض السلف بعبارة موجزة أخذه عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" وحبَّره تحبيراً حسناً فقال: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي لمن أعمل قلبه فيما خلق القلب له من التدبر والتفكر والنظر فيما ينبغي أن ينظر فيه؛ فهذا على أن يجعل الذي لا يعي ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر، كأنه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به، وفاته الذي هو فائدة القلب والمطلوب منه كما يجعل الذي لا ينتفع ببصره وسمعه ولا يفكر فيما يؤديان إليه، ولا يحصل من رؤية ما يرى وسماع ما يسمع على فائدة، بمنزلة من لا سمع له ولا بصر.

فأما تفسير من يفسره على أنه بمعنى «من كان له عقل»، فإنه إنما يصح

على أن يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة، فأما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كأن «القلب» اسم «للعقل»، كما يتوهمه الحشو ومن لا يعرف مخارج الكلام، فمحال باطل، لأنه يؤدي إلى إبطال الغرض من الآية، وإلى تحريف الكلام عن صورته، وإزالة المعنى عن جهته.

وذاك أن المراد به الحث على النظر، والتقريع على تركه، وذمُّ من يخلُّ به ويغفل عنه، ولا يحصل ذلك إلا بالطريق الذي قدّمتُه، وإلا بأن يكون قد جعل من لا يفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر، كأنه ليس بذي قلب، كما يجعل كأنه جماد، وكأنه ميت لا يشعر ولا يحس.

وليس سبيل من فسر «القلب» ههنا على «العقل» إلا سبيل من فسر عليه «العين» و «السمع» في قول الناس: «هذا بين لمن كانت له عين، ولمن كان له سمع» وفسر «العمى» و «الصمم» و «الموت» في صفة من يوصف بالجهالة، على مجرد الجهل، وأجرى جميع ذلك على الظاهر، فاعرفه.

ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا أبدا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل، أنها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض، ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة، ومكان الشرف، وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه، وجعلوا يكثرون في غير طائل، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق)ا.هـ.

ثم جاء ابن القيّم بعده فزاد في هذا التفسير وبالغ في تحبيره وتحريره وأسهب فيه وأطنب، وأدهش وأعجب، واستعمل السبر والتقسيم، ووقف على معاني الحروف والأساليب، ومقاصد الآية وسياقها، وتوافقها

مع مقاصد القرآن واتّساقها، فخرج ببيان بديع معجِب.

فقال في كتابه "مدارج السالكين": (وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

والناس ثلاثة: **رجل قلبه ميت**، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرا، فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلْقِ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم على ما قررت؟

قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيمانا وبصيرة، حتى كأنّ الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه، حتى قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي صلى الله عليه وسلم، كمثل رجلين دخلا دارا، فرأى أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته، والآخر وقعت يده على ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته، لكن علم أن فيها أمورا عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها، ثم خرجا، فسأله عما رأى في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلى درجات الصديقية، ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبدٍ بمثل هذا الإيمان، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضا ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها، وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما، حتى إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا، قال الله تعالى ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ فكل مؤمن يرى هذا، ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر)ا.هـ.

والمقصود من هذا العرض أن العلماء المتقدمين كانت لهم عناية بهذا النوع لكنهم كانوا يجتزئون عن التطويل بالإشارة، وعن التفصيل بالتنبيه.

قال عبد الله بن دينار: كان عمر بن الخطاب يسأل ابن عباس عن الشيء من القرآن ثم يقول: «**غُصْ غوَّاص**» رواه الإمام أحمد في "فضائل الصحابة".

وقال ابن عباس لرجل سأله عن مسائل في القرآن أشكلت عليه، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ونظائرها؛ قال: ما شأنه يقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ يشير إلى أن (كان) لما مضى.

فقال له ابن عباس: «**وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾؛ فإن الله كان لم يزل كذلك، وهو كذلك عزيز حكيم قدير، لم يزل كذلك؛ فما اختلف عليك من القرآن فهو شِبْهُ ما ذكرت لك؛ فإنَّ الله لم يُنزِل شيئاً إلا وقد أصاب به الذي أراد، ولكن الناس لا يعلمون**». رواه عبد الرزاق وابن أبي حاتم، وعلَّقه البخاري في صحيحه.

ثم لما توسّع العلماء في علوم البلاغة ظهر أثر العناية بتلك العلوم على تعاطيهم مسائلَ التفسير، و**اشتهر بالعناية بالتفسير البياني جماعة من المفسّرين** منهم: **الزمخشري** و**الطيبي** و**ابن القيم** و**البقاعي** و**أبو السعود** و**الشهاب الخفاجي** و**الألوسي** و**ابن عاشور**.

ولبعض العلماء رسائل مفردة أو فصول من بعض كتبهم، ومن أجودها:

١. فصل في تفسير قول الله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ...﴾ الآية لابن القيم.

٢. "كفاية الألمعي في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ...﴾" للحافظ ابن الجزري.

٣. "فتح الجليل للعبد الذليل" لجلال الدين السيوطي.

مثال:

١. رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

التطبيق:

- اكتب رسالة تفسيرية مختصرة بالأسلوب البياني.

رسالة في تفسير قول الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

تضمنت هاتان الآيتان من الأوجه البيانية البديعة، والفوائد واللطائف العجيبة ما يملأ قلب متأمّلهما تعظيماً لكلام الله جلّ وعلا، ويقيناً بحسن بيانه، وأنّه ليس كمثل كلام الله تعالى كلام، ولا كمثل خطابه خطاب، قد بهر الألباب بإحكامِ بيانه، وشفى النفوس بهداه وبصائره، ووعظ القلوب فأحياها، وزجر النفوس عن أهوائها المردية وزكّاها، ودلّ أولي الألباب على سبيل الحكمة بأحسن بيان وألطف خطاب.

وهذه الرسالة فيها بيان لما يسّر الله معرفته من الأوجه البيانية في هاتين الآيتين، وبديع اختيار بعض الألفاظ على بعض، وقوّة دلالتها على المعاني المرادة، وسعة آثارها ولوازمها، ووفائها بما تحتاجه النفس البشرية من بيان الهدى؛ وشفاء أدوائها، بأبينِ الألفاظ وأجلّ المعاني، وأحسنها أثراً، وأشدّها تأثيراً على من عقل الخطاب وفهم المراد.

وأوّل ذلك إخراج هاتين الآيتين مخرج الرسالة العظيمة ذات الشأن الكبير، وتوجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليبلّغ هذه الرسالة العظيمة ذات الشأن؛ إذ من المعلوم المتقرر أن الرسائل العظيمة يُختار لتبليغها عظيمُ القَدْرِ والأمانة، فعِظَم قَدْرِ المرسَل بهذه الرسالة من دلائل عظمة الرسالة نفسها، وأنّها ذات شأن كبير، وأثر جليل.

فقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ﴾

والإنباء أخصّ من مجرّد الإخبار؛ فهو إخبار صادق عن أمرٍ ذي شأن يفيد علماً له أثرٌ على المنبَّأ به، وهذه خلاصة ما ذكرَ أهل العلم من الفرق بين الإخبار والإنباء، وقد ذكر بعضَ ذلك الراغبُ في مفرداته والزبيديُّ في تاج العروس وغيرهما، وهو ما يدلّ عليه استقراء ورود هذا اللفظ في كلام العرب؛ فلا يكادُ يُطلق لفظ النبأ على الخبر التافه إلا على سبيل التهكّم، كما لا يكاد يطلق إلا على الخبر الذي له أثرٌ على المنبَّأ به؛ فيهتمّ له ويُعنى به، كما قال كعب بن زهير:

نُبِّئـت أنّ رسـول الله أوعـدني ... والعفو عند رسـول الله مأمول

وقال الحارث بن حلّزة اليشكري:

وأتانـا مـنَ الحـوادثِ والأنبا ... ءِ خَطـبٌ نُعْنَـى بِـهِ وَنُسَـاءُ
أنَّ إخوانَنـا الأراقـمَ يَغلُـو ... نَ علينـا في قيلهـمْ إحفـاءُ
يخلطونَ الـبريءَ منّا بذي الذَّنْـ ... ـب ولا يَنفـعُ الخلـيَّ الخـلاءُ

وقال امرؤ القيس بن حجر:

تَطـاولَ لَيلُـك بالأثمـدِ ... ونـام الخَـلِيُّ ولَمْ ترْقُـدِ
وبـات وباتـتْ لـهُ ليلـةٌ ... كَلَيْلَـةِ ذي العائـرِ الأرْمَـدِ
وذلـكَ مـن نَبَـأٍ جـاءني ... وَخُبِّرْتُـهُ عَـنْ أبي الأسْـوَدِ

وقد نُسبت هذه الأبيات إلى غير امرئ القيس، والمشهور أنها له، وشواهد هذا المعنى كثيرة في كلام العرب وأشعارهم.

والمقصود أنّ قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ﴾ يدلّ على الإخبار بأمر له شأن، يجب على المنبَّئين به أن ينصتوا له، ويعوه بقلوبهم، ويعرفوا له قدره.

واختير لفظ ﴿نَبِّئْ﴾ بالتشديد على [أنبئ] في هذا المقام للدلالة على التوكيد، وبيان عِظَم الأمرِ المنبّأ به.

وتصدير الآية بالأمر بـ﴿نَبِّئْ﴾ يهيّئ النفس لتلقّي هذا النبأ ذي الشأن، فيلقي إليه السامع سمعه، ويُحضِرَه عقلَه، ويتفكّر فيه، ويتبصّر به، حتى يدرك مقصده وأثره؛ ويتّبع ما فيه من الهدى.

وقوله تعالى: ﴿عِبَادِيٓ﴾ اختيار هذا اللفظ على غيره من الألفاظ فيه تذكير للناس بعبوديتهم لربّهم جلّ وعلا، وأنّهم مهما بلغوا فهم عباد مخلوقون لعبادته، مقهورون تحت حكمه، لا يخرجون عن سلطانه؛ ففيه من توكيد وجوب الاستماع إلى هذا النبأ ما لا يخفى؛ إذ هو خطاب ربّهم ومالكهم الذي لا ربّ لهم سواه، ولا خالق لهم غيره؛ فكذلك يجب أن لا يكون لهم معبود سواه، ولا أعظم في قلوبهم منه.

والإضافة في ﴿عِبَادِيٓ﴾ تحمل معنيين متسقين غير مختلفين:

المعنى الأول: إضافة الملك والاختصاص، أي هم عباده لا عباد غيره، وهي إضافة تقتضي أنّهم مخلوقون مربوبون محكومون بحكم الله تعالى، لا يخرجون عن حُكْمِه وسلطانه، وهذا باعتبار معنى العبودية العام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

والمعنى الثاني: إضافة التشريف، وهي خاصة لعباده الذين يعبدونه وحده لا شريك له؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴿٦٥﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾﴾.

ولكل عبد ما يناسبه من هذه الإضافة؛ فالمؤمنون لهم منها حظ التشريف والتكريم، والكفّار لهم منها حظّ العبودية اللازمة لهم التي لا يخرجون عنها بحال من الأحوال، وهي حجّة عليهم؛ إذ عبدوا غيره، وهما عباده في الحقيقة.

والإضافتان تقتضيان عناية الله تعالى بعباده، وأنّه لم يخلقهم عبثاً، ولم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم الرسل، وبيّن لهم الهدى.

وهذه الإضافة تفيد المؤمنين فائدة أخرى عظيمة الشأن والأثر، وهي أنها تحرّك محبّة الله تعالى في قلوبهم،وتعظّمها وتنمّيها، ويزيدها الاعتزاز بتشريفه إيَّاهم بإضافتهم إليه؛ فهم عبادُه، وهو معبودهم الذي يعبدونه وحده لا شريك له؛ فيحبّونه غاية المحبة، ويعظّمونه غاية التعظيم، ويخضعون له غاية الخضوع، ولا تسمّى العبادة عبادة حتى يجتمع فيها معنى المحبة والتعظيم والخضوع، وبذلك يكون المرء عابداً لله حقاً.

فالأمر منه تعالى ليس كالأمر من غيره، والنبأ منه ليس كالنبأ من غيره؛ بل هو نبأ جليل؛ حقّه أن يُتلقّى بالتعظيم والإجلال، وأن يُفقه أحسن الفقه.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ﴾ استهلال لبيان موضوع النبأ، وأنّه أشرف موضوع وأجلّ منبَّأ به، إذ هو نبأ عن الله جلّ وعلا، صيغ بأداة التوكيد (أنّ)، وحذفت منه نون الوقاية التي تكون في [أنني] للإشعار بجلالة النبأ، وسرعة الدخول في المراد.

﴿أَنَا﴾ ضمير الفصل هنا دالٌّ على معنى الحصر والتوكيد لمعنى الإضافة في ﴿أَنِّيٓ﴾؛ وفي هذا من بيان رهبة الرسالة وجلالة قدرها، وعِظَم خَطَرها ما يجعل النفوس المؤمنة بهذا الخطاب تتلقّاه بالتعظيم والإجلال، وإلقاء السمع لما يكون من هذا النبأ.

﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البدء بذكر المغفرة والرحمة فيه إذهاب لما في النفس رهبة أوّل الخطاب؛ ليحلّ محلّها الرجاء، فيكون ذلك أوقع في النفس، وأحسن أثراً.

﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء، عظيم المغفرة، واسع المغفرة، كثير الغُفْران، لا يستعظمه ذنبه أن يغفره، يغفر الذنوب ولا يبالي، وفي هذا من الدعوة إلى استغفاره، ورجاء مغفرته ما لا يخفى، وأنّ العبد مهما بلغت ذنوبه فيجب أن لا ييأس من مغفرة ربّه جلّ وعلا.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء؛ فهو عظيم الرحمة، كثير الرحمة، إذ المبالغة في «رحيم» تأتي لمعنى الكثرة، ولمعنى العَظَمة، والله تعالى هو الرحيم بالمعنيين؛ فرحمته عظيمة واسعة، وهو كثير الرحمة، وفي هذا من قذف رجاء رحمة الله في القلب ما لا يخفى أثره؛ حتى يكاد يمتلئ قلب المؤمن الموقن بهذا الخطاب من رجاء رحمة ربّه.

فلكثرة رحمة الله تعالى يرجو العبد أن تناله تلك الرحمة وأن لا تضيق عنه فيحرم منها، ولِعِظَم رحمته جلّ علا يرجو أن يصيبه منها ما يُسْعده في دنياه وأخراه.

والرجاء من أعظم الدوافع للعمل؛ فلعظمة الرجاء في القلب يتحمل العبد المشاقّ، ويعاني الصعاب، وهو فرح مسرور؛ لا يأسف على ما فاته

مما تهواه نفسه؛ إذ كان ما يرجوه أعظم في نفسه، وأجلّ خطراً؛ فهان عليه ما يلقى في سبيله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرْجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾.

فلمّا عظم الرجاء في قلوبهم أقدموا على هذه الأعمال الجليلة بنفوس مؤمنة مقبلة.

ولمّا تخلّف هذا الرجاء عن الكفار والمنافقين هان عليهم ترك الفرائض، وارتكاب المحرمات، والإعراض عن هدى الله؛ لأنّ قلوبهم لم يكن فيها من الرجاء ما يحملهم على الطاعة والاتّباع، ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾﴾.

ومما يبيّن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين: «أثقلُ صلاة على المنافقين: صلاةُ العِشاء، وصلاةُ الفجرِ، ولو يعْلَمُونَ ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوا» متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فلو كان في قلوبهم رجاء صحيح قائم على التصديق بوعد الله واليقين بفضله؛ لدفعهم إلى شهود الصلاة مع المؤمنين.

وبهذا يظهر أنّ مقصد الآية تعظيم الرجاء في قلوب المؤمنين، وأنها تقتضي منهم الاجتهاد في طلب فضل الله ورحمته، والسعي في الأعمال الصالحة التي هي سبب الرحمة وموجِبتها بإذن الله.

وفي ضمير الفصل ﴿أَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معنى لطيف بديع، وهو الدلالة على الضمانة التي يطمئنّ لها قلب المؤمن، فيصدّق بوعد الله، ويرجو رحمته ومغفرته.

ألا ترى أنّك إذا قلت لمن يطلبُ شيئاً وتريد أن يطمئنّ لوعدك وكفايتك له: (أنا أعطيك)، وربما أشرت إلى صدرك لتحقيق معنى الضمانة، وهذا أوقع في نفس السائل وأعظم أثراً من قولك: (سأعطيك) مجردة من هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾.

﴿وَأَنَّ﴾ الواو للعطف، و﴿أَنَّ﴾ للتوكيد، وهذا شروع في بيان نبأ عظيم آخر؛ مؤكّد بأداة التوكيد ﴿أَنَّ﴾.

﴿عَذَابِي﴾ أضاف العذاب إليه إضافةً تقتضي التعريف والاختصاص، بما يدلّ على أنه عذاب عظيم ليس كأيّ عذاب، بل هو عذاب لا مثيل له، كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥﴾.

وفي المراد بهذا العذاب وجهان في التفسير:

أحدهما: أنّه شاملٌ لكلّ عذابٍ من الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ﴾.

- وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

- وقال تعالى في شأن الأمم المكذّبة التي أهلكها بعذاب من عنده: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾.

- وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

- وقال تعالى في توعّد من يريد التخلّف عن الجهاد الواجب: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

والآيات في عذاب الله تعالى للعصاة عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة كثيرة، وهذا القول مبنيّ على أنّ لفظ العذاب في الآية نكرة مضافة؛ فأفادت العموم.

ويدلّ على هذا المعنى ما ورد من العقوبات على كثير من المعاصي، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ والراجح أنّها ليست بمنسوخة، وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الآية يمنع القول بنسخها.

- وفي "مسند الإمام أحمد" و"صحيح ابن حبان" وغيرهما من حديث يونس بن عبيد عن الحسن البصري عن عبد الله بن مغفَّل المزنيّ رضي الله عنه أن رجلا لقي امرأة كانت بغيًّا في الجاهلية، فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها، فقالت المرأة: مَهْ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد ذهب بالشرك وجاءنا بالإسلام؛ فتركها وولَّى، وجعل ينظر إليها حتى أصاب وجهه الحائط فشجَّه؛ ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره، فقال: «أنت عبد أراد الله بك خيرا، إذا أراد الله عز وجل بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه، وإذا أراد بعبد شرا أمسك عليه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة كأنه عَيْر».

فهذه النصوص وما في معناها تدلّ على أنّ من العذاب ما يُعجَّل عقوبةً لصاحبه؛ فأمّا المؤمن فيكون فيه تكفير لذنوبه أو بعضها، وأمّا الكافر والمنافق فيكون لهما من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر.

والوجه الآخر: أنّ العذاب هنا يُراد به العذاب الأكبر، وهو عذاب الخلود في النّار، والعياذ بالله منها، وهذا مبني على أنّ لفظ العذاب في الآية عامٌّ أريد به الخصوص، وهو العذاب المذكور في قوله الله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: [أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي]، وقال للنار: [إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها]».

فأما النار: فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة: فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا».

والشاهد قوله تعالى للنار: [إنما أنت عذابي].

فمن حمل الآية على هذا الوجه؛ فتخريجها أنّ لفظ العذاب عامّ مرادٌ به الخصوص لمناسبة الوعيد المقابل للوعد، ولمناسبة أسلوب الحصر في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾.

والوجهان يدلّ بعضهما على بعض؛ فمن حمل الآية على الوجه الأول فالوجه الثاني داخلٌ فيه دخولاً أولياً إذ هو أولى ما يُطلق عليه العذاب، مع ظهورِ اقتضاء هذا الوجه الترهيب من كلّ معصية؛ لأنّ مخالفة أمر الله تعالى متوعّد عليها بعذاب أليم.

ومن حملها على الوجه الثاني ففيه دلالة على الترهيب من التعرّض لأسباب ذلك العذاب؛ فدلّ على التحذير من المعاصي لأنّها سبب للعذاب الأكبر، وكذلك فإنّ من يعذّب على الفسق الأكبر بالعذاب الأكبر قادر على أن يعذّب صاحب الفسق الأدنى ببعض العذاب الأدنى.

ففي كلا الوجهين تحذير من عذاب أليم على مخالفة أمر الله؛ وعلى قدر عظم المعصية يعظم الوعيد.

﴿هُوَ﴾ ضمير الفصل هنا لإفادة الحصر، وهذا الحصر على معنى الأولوية في اعتبار الصفة.

فإذا حُمل المراد بالعذاب على الوجه الثاني: فكلّ عذاب إذا نُسب إلى عذاب الله الأكبر فنسبته إليه كلا شيء؛ فكأنّه وحدَه العذاب الأليم، وما سواه فلا يعدّ ألمُه على شدّته ألماً بإزاء هذا العذاب الأليم.

فما يعرفه الناس من ألوان العذاب الذي تقتضيه شؤون هذه الحياة من آلام الأمراض والولادة والموت والقتل إذا نسبت آلامها إلى ألم العذاب الأكبر كانت تلك النسبة ضئيلة جداً، بل كأنها معدومة لا تستحقّ أن تذكر.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾؛ فأفرد لها زلزالاً واحداً وهو زلزال يوم القيامة؛ فكأنّ ما يعرفه الناس من أنواع الزلازل على كثرتها وشدّتها لا يعدّ شيئاً في جنب ذلك الزلزال العظيم؛ فإذا وقع ذلك الزلزال؛ فكأنّه زلزالها الذي لا زلزال لها غيره من شدّته وعِظَم هوله؛ إذ ترجّ به الأرض كلها رجّا، وتزول الجبال كلها، ويقع من هول تلك الزلزلة ما يذهل المرضعة عما أرضعت، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

فلمّا كان هولُ ذلك الزلزال لا نسبة لزلازل الأرض كلها إليه سمّي زلزالها؛ فكذلك عذاب الله تعالى المراد في هذه الآية ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

الأليم: الموجِعُ بألَمِه، و«أليم» صيغة مبالغة تدلّ على معنى الشدّة، وعلى معنى الطول؛ فهو عذاب أليمٌ شديد الإيلام، طويل الإيلام، لا ينقطع إيلامه ولا يخفّ، والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

- وقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

وأصل ما يخافه الناس ويجتهدون في السلامة منه هو «الألم»، بل إنّ من أهل العلم من أرجع معاني الشرّ كلّها إلى الألم وأسبابه؛ كما قال ابن القيّم رحمه الله تعالى في "بدائع الفوائد": (الشرّ يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمّى سوى ذلك؛ فالشرور هي الآلام وأسبابها؛ فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرورٌ وإن كان لصاحبها فيها نوعُ غَرَضٍ ولذَّة، لكنها شرور لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبَّباتها؛ فترتُّب الألم عليها كترتّب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضيةً إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع السببيةَ مانعٌ أو يعارضِ السببَ ما هو أقوى منه وأشدّ اقتضاءً لضدّه، كما يعارض سببَ المعاصي قوةُ الإيمان وعظمةُ الحسنات الماحية وكثرتُها فيزيد في كميّتها وكيفيتها على أسبابِ العذاب؛ فيدفع الأقوى الأضعفَ، وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة)ا.هـ.

وإذا أريد بالعذاب الوجه الثاني؛ فهو تنبيه على الموازنة بين ما يصيب الإنسان من العذاب بسبب معصية الله، وبين ما يصيب المؤمن من ألم

الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، وألم الأقدار المؤلمة، فما يصيب المؤمن من ذلك فهو خيرٌ له لإفضائه إلى ما يحبّ من رفعة الدرجات ومضاعفة الحسنات وتكفير السيئات.

فإن كان يجد ألماً في الصبر فالألم الحقيقي هو في ترك الصبر؛ لأنّ ترك الصبر على الطاعات، وترك الصبر عن المعاصي، وترك الصبر على الأقدار المؤلمة كلّ ذلك يفضي إلى عذاب أليم لا نسبة إلى ما يجده من ألم الصبر إلى ألم العذاب على تركه.

وهذا المعنى نبّه إليه في أكثر من آية:

كما قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ ﴾.

- وقال تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ ﴾.

أي فما تجدونه من ألم الصبر على الجهاد أشدّ عليكم من ألم ترك الجهاد؛ إذ يفضي بكم إلى الفتنة في الدين والتعرض للعذاب الأليم إذا فُتنتم في دينكم.

وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾.

وما يصيب المسلم من العذاب بسبب معصيته ففيه تكفير له، وتعجيل لعقوبته حتى يأتي يوم القيامة خفيف الحمل من الأوزار، وفيه تذكيرٌ له بشؤم المعصية وقبح أثرها؛ فيذوق من جنس ما يذوقه أهل المعصية حتى يرجع إلى ربّه وينيب إليه.

وما يُسمّى عذاباً مما يقع على العبد فلا يخرج عن أحد نوعين:

النوع الأول: ما يقع ابتلاءً للعبد من الأقدار المؤلمة له إيلاماً جسدياً أو نفسياً؛ كألم المرض، وألم فقد العزيز، وألم اللأواء والنَّصَب، وهذا النوع يصحّ أن يُسمّى عذاباً لأنّ النفس تتعذّب به، وفي الصحيحين من حديث سُميّ عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه؛ فإذا قضى أحدُكم نهمته من وجهِهِ فلْيعْجَلْ إلى أهله».

والنوع الآخر: ما يقع عقوبة على ذنب.

والعبد لا يكاد يسلم من تقصير وتفريط، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾.

وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾.

ولذلك فإنّ كثرة الاستغفار والتوبة نافعة في دفع كثير من العذاب، وقد يقع ما صورته في الظاهر عذاب فيخفّفه الله على بعض عباده المؤمنين رحمة بهم حتى لا يجدوا من ألمه إلا شيئاً يسيراً محتملاً.

وقد يجتمع في حقّ المسلم عذاب الابتلاء وعذاب العقوبة؛ فيكون عقوبة لهم على ذنب سابق وابتلاء لهم؛ كما قال الله تعالى لمن تولّى عن الجهاد: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

وقد تشتبه صورة عذاب العقوبة بصورة عذاب الابتلاء ستراً من الله لعباده؛ وقد يقع أمرٌ فيه عذاب عامّ؛ فيكون لبعض الناس عقوبة ولبعضهم ابتلاء.

والعبرة بحال العبد؛ فإنْ كان مستقيماً على طاعة الله تعالى؛ فهو ابتلاء له، ورفعة لدرجاته وتكفير سيئاته، وإن كان مقترفاً لمآثم ظاهرة أو باطنة فهو من عقوبة ذنبه؛ فليبادر بالتوبة والاستغفار ليتطهّر من ذنوبه ما دام في دار المهلة قبل أن يعذّب في سكرات الموت أو في قبره أو في عرصات يوم القيامة أو النار ما لم تدركه رحمة أرحم الراحمين؛ فإنّ الله تعالى قد كتب أنّ الجنّة لا تدخلها إلا نفس طيّبة، والمعاصي خَبَثٌ؛ فلم تطهّره التوبة والأعمال الصالحة في الدنيا عذّب حتى يتطهّر من ذنوبه كلّها، إلا أن تدركه رحمة من ربّه.

ومقصد هذه الآية ظاهرٌ في التخويف من معصية الله تعالى ومخالفة أمره؛ فمن أيقن بهذا الإنذار خاف أن يقع في شيء مما يجرّ عليه عذاب الله تعالى.

فهاتان الآيتان على وجازة ألفاظهما تضمنتا الدلالة على **أصول محرّكات القلوب الثلاثة**: **المحبّة** و**الرجاء** و**الخوف**، وهي أصول العبادات الباطنة التي هي أصل العبادات الظاهرة.

وقد جعل الله هاتين الآيتين مقدمة بين يدي قصص عظيمة الشأن والأثر تدلّ على مغفرته تعالى ورحمته لمن أطاعه، وتعذيبه لمن عصاه، ليتفكّر المرء في أصلي الثواب والعقاب، وأنّ سنّة الله تعالى ماضية لا تبديل لها.

قال ابن عاشور: (وإنما قدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء مَن بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب)ا.هـ.

فانظر إلى هاتين الآيتين ما أجلّ نبأهما، وما أعظم أثرهما على من تفكّر فيهما، وآمن بهما، فلو أنّ قلوبنا تطهّرت مما بها لوجدنا من أثرها ما يحرّك الأشجان، ويُسبل الدموع، ويقضّ المضاجع.

والقول كما قال الشاطبي رحمه الله:

فلو أنّ عيناً ساعدت لتوكّفت	**سحائبها بالدمع ديما وهطّلا**
ولكنّها عن قسوة القلب قحطها	**فيا ضيعة الأعمار تمضي سبهللا**

اللهمَّ إنا نسألك مغفرتك ورحمتك، ونعوذ بك من عذابك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.





الباب السابع: الأسلوب المقاصدي

الأسلوب المقاصدي هو الأسلوب الذي يكون غرض المتكلّم به بيان مقاصد الآيات التي يفسّرها؛ والوقوف عندها، وتأمّل دلائلها وآثارها واتساقها مع المقاصد العامة للقرآن، وبيان حاجة الناس إلى فقه تلك المقاصد، واتّباع ما دلَّت عليه من الهدى.

والحديث عن هذه المسائل العظيمة يجرّ إلى التنبيه على أنواع مخالفات الناس لتلك الهدايات، وآثار تلك المخالفات عليهم، وبيان ما يُرشدون به للتخلص من آثار مخالفاتهم، والسلامة من شؤمها وعقوباتها، ودلالتهم على سبيل الفلاح والفوز برضوان الله تعالى وحسن ثوابه.

ثمرات الأسلوب المقاصدي:

التفسير بالأسلوب المقاصدي له ثمرات جليلة:

منها: أن فيه بياناً لمقاصد الآيات، وتقريراً لأدلة تلك المقاصد، وتفقيهاً بهداياتها وإرشاداتها، وهذا الأمر قد يغفل عنه كثير ممن يكتب في التفسير، ولذلك قلَّ البارعون في هذا الأسلوب التفسيري الجليل.

ومنها: أن فيه بياناً لاتّساق مقاصد الآيات مع المقاصد العامة للقرآن، وذلك لأجل عناية المفسّر بهذه المعاني واشتغاله ببيانها والحديث عنها

فيكشف بذلك عن أوجه بديعة لهذا الاتّساق والتناسب يتبيَّن للمخاطَب بها عظمة المقاصد القرآنية، وجلالة قدرها، واتّساع آثارها، وشدّة الحاجة إلى فقهها.

ومنها: أن فيه تقريراً حسناً لاتّصال المقاصد القرآنية بأحوال المخاطبين وأحكام أعمالهم وجزائهم، وتنبيهاً على الأصول الجامعة لتلك الأحوال والأحكام، وميزان العدل ومظاهر الإحسان، وتعريفاً بأسباب التوفيق والخذلان، وكلّ ذلك مما يُعين على حسن فهم القرآن.

ومنها: ما يظهر للمخاطبين بهذا الأسلوب من بيان بديع يَسْتَجْلون به معاني صفات القرآن التي وصفه الله بها من العظمة والمجد والإحكام والبركة والشفاء وأنّه كتاب قيّم حاكم على جميع شؤون المكلفين؛ فلا يخلو حال من أحوال العبد ولا عمل من أعماله من حُكْمٍ يجري عليه بسبب هذا القرآن العظيم.

أصول التفسير المقاصدي:

التفسير بالأسلوب المقاصدي يستدعي فقهاً حسناً لمقاصد القرآن العامة، وبصيرة حسنة بمقاصد إنزال الآيات التي يفسّرها المفسّر، ومعرفة بأحوال المخاطبين، وطرق تناول الآيات لتلك الأحوال، وتقرير ما يتحقَّق به صلاحهم وفلاحهم.

وهذه المعارف الجليلة يجب أن تكون قائمة على فقه لأصول الدين، ودراية بمنهج أهل السنة في الاعتقاد ومعاملة المخالفين، ومعرفة حسنة بأحكام الشريعة ومقاصدها، وأصول الخلاف بين الرسل وأعدائهم،

وبصيرة بتجدد مظاهر تلك الأصول، وتعدد آثارها، وإدراكاً لحقيقة دعوة الرسل، وفقهاً لأصول الفتن وسنن الابتلاء، والتناسب بين الحكم والجزاء، إلى غير ذلك من الأصول التي يُعتمد عليها غالباً في أسلوب التفسير المقاصدي.

سمات التفسير المقاصدي:

والمفسّر بهذا الأسلوب يغلب عليه النظر إلى مقاصد الآيات والبيان عنها وعن آثارها وتعلّقها بالمكلفين، والإسهاب في المسائل المتّصلة بتلك المقاصد، وإظهار ما تبيّن له من أوجه الحكمة البالغة في التشريع والتقدير والجزاء وما تضمنته الآيات التي يفسّرها من أنواع الأدلة عليها، وهذا الإسهاب قد يحمل المفسّر على تجاوز بعض المسائل التفسيرية التي تضمنتها تلك الآيات.

وقد يتكلم المفسّر بهذا الأسلوب عن آية يبدو للناظر فيها بادي الأمر أنها واضحة بينة لا يحتاج إلى تفسيرها ولا الكشف عن معانيها، لكنه ما إن يبيّن مقاصدها، ويعرّف بسعة دلائلها، وشدّة الحاجة إلى فقه مسائلها حتى يكاد يشعر المخاطَب أنه لأوّل مرة يعرف معناها.

طرق تحسين الأسلوب المقاصدي:

لتحسين الأسلوب المقاصدي وسائل تعين عليه:

منها: التفقّه في أمثال القرآن؛ وتدبّرها وعقل معانيها.

ومنها: قراءة الرسائل والفصول التي يُعنَى فيها بهذا الأسلوب.

ومنها: القراءة في التفاسير التي لأصحابها عناية بالكشف عن مقاصد الآيات ومراعاة المقصد في الترجيح بين الأقوال، ومن أجودها تفسير ابن عطية وابن عاشور، ولابن الجوزي إشارات حسنة لبعض ذلك في تفسيره "زاد المسير".

ومنها: قراءة الكتب التي تعنى ببيان مقاصد الشريعة ومحاسنها وسعة دلائل النصوص وحكم التشريع، ومن أجودها: "الرسالة" للشافعي، و"الموافقات" للشاطبي، و"إعلام الموقعين" لابن القيم.

ومنها: القراءة الواعية في أصول علم السلوك، ولاسيما المباحث المتعلقة بالفتن والابتلاء، والعقوبة والجزاء، وهذه المباحث متفرقة في كتب علم السلوك.

عناية العلماء بالأسلوب المقاصدي:

للسلف عناية حسنة بفقه مقاصد الآيات، ولذلك يصحّ القول بأنّ التفسير المقاصدي له أصل مأثور عن السلف الصالح لكنَّهم كانوا يجتزئون بالعبارة المنبّهة عن الإسهاب والإطناب، كما تقدّم نظيره عنهم في الأسلوب البياني.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي بشر اليشكري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: (كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟!!

فقال عمر: إنه من قد علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم.

قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا.

فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟

فقلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: «**هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له**»، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ «**وذلك علامة أجلك**»، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾، فقال عمر: «**ما أعلم منها إلا ما تقول**»).

قال ابن القيّم رحمه الله: (وهذا من أدقّ الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب للاستغفار، فعُلِمَ أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه ليلقى ربه طاهراً مطهراً من كل ذنب؛ فيقدم عليه مسروراً راضياً مرضياً عنه.

ويدل عليه أيضا قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ وهو صلى الله عليه وسلم كان يسبح بحمده دائما؛ فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في هذا الدين أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك

مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقية فأمره بتوفيتها.

ويدل عليه أيضا أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج وقيام الليل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا، وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين» فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجا، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها)ا.هـ.

وقال قتادة في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قال: «**هذا مَثَلٌ ضربه الله في المؤمن والكافر**» رواه عبد الرزاق وابن جرير.

وتتبّع إشارات السلف إلى مقاصد الآيات نافع جداً في هذا الباب.

ولبعض المفسّرين عناية بملاحظة مقاصد الآية وطرق تقريرها والتنبيه عليها، ومنهم: **ابن عطية** و**ابن الجوزي** و**ابن تيمية** و**ابن القيّم** و**ابن كثير**، و**ابن عاشور**.

والكتابة بالأسلوب المقاصدي غالبا ما تكون متداخلة مع غيرها من الأساليب، لكن **من أجود ما ظهر فيه الأسلوب المقاصدي من الرسائل والفصول التفسيرية:**

١. "تفسير صدر سورة العنكبوت" لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد نقلها عنه تلميذه ابن القيم في كتاب "الفوائد".

٢. تفسير قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ...﴾ لابن القيم.

أنواع مقاصد السور والآيات:

مقصد الآية قد يكون ظاهراً وقد يكون خفياً:

فمثال الظاهر: قول الله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

ومثال غير الظاهر: ما جاء عن ابن عباس في تفسير سورة النصر.

والنوع الثاني يُحتاج فيه إلى دقة في الاستنباط، وحسن نظر وتأمّل.

وإذا تبيّن المقصد للمفسّر سهل عليه أن يفسّر الآيات إجمالا أو تفصيلا على ضوء ذلك المقصد.

إتقان الأسلوب المقاصدي

مما يعين على إتقان الأسلوب المقاصدي أو مقاربة الإتقان:

١. أن يجتهد المفسّر في استخراج مقصد الآية أولاً؛ فإن كان ظاهراً فالحمد لله، وإن كان غير ظاهر اجتهد في استخراج الفوائد السلوكية، وتأمَّلَ سياقَ الآيةِ وخاتمتها، ثم وازنَ بين الفوائد التي استخرجها من الآية وبين سياق الآية وخاتمتها؛ فإنه يُرجى له أن يقارب إصابة مقصد الآية.

٢. أن يستخلص الهدايات الربانية الواردة في الآية، وغالباً ما تكون ظاهرة بيّنة.

٣. أن يتأمّل هذه الهدايات جيداً، ويتفكّر في حاجة الناس إليها، ثمّ يتحدّث عن ذلك بتفصيل مناسب، ويحشد لبيان هذه الحاجة مما اطّلع عليه من أقوال المفسرين، ومما أنعم الله به عليه من مخزون معرفي متراكم.

٤. أن يتأمّل أحوال الناس في اتّباع تلك الهدايات الربانية ودرجاتهم في ذلك، والآثار الحسنة لتلك الهدايات على من اتّبعها.

٥. أن يتفكّر في أحوال المعرضين والغافلين عن تلك الهدايات، والآثار السيئة لإعراضهم وغفلتهم، ويتحدّث عنها بتفصيل مناسب.

٦. أن يتفكّر في خاتمة الآية وتناسبها مع مطلعها وسياقها ويستخلص الفوائد المتعلقة بما سبق منها.

٧. أن يتفكر في تناسب هذه الهدايات مع مقاصد السورة والمقاصد القرآنية العامة.

فإذا فصَّل المفسّرُ الحديثَ في هذه النقاط السبع بكلام صحيح متقن أرجو أن يكون تفسيره تفسيراً مقاصدياً حسناً بإذن الله.

مثال:

١. تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾.

التطبيق:

- اكتب رسالة تفسيرية مختصرة بالأسلوب المقاصدي.

رسالة في تفسير قول الله تعالى:

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

هذه الآية الجليلة من الوصية العظيمة التي وصَّى بها يوسف عليه السلام صاحبي السجن في جملٍ يسيرة الألفاظِ، واسعةِ الدلائل، جليلةِ المعاني.

قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وسنقف وقفات عند قوله في هذه الوصية: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ونتفكّر في معانيها وآثارها وسعة دلائلها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أسلوب حصر مؤكد، قاطع بنفي أيِّ حُكْمٍ غير حكم الله تعالى على الحقيقة.

وحكم الله تعالى على ثلاثة أنواع: **حكمٌ شرعي**، و**حكم قدريّ**، و**حكم جزائي**.

- **فالحكم الشرعي** ما تعلق بالأمر والنهي.
- **والحكم القدري** متعلق بالقضاء والقدر.
- **والحكم الجزائي** متعلّق بالثواب والعقاب.

وهذه الأنواع تجتمع في حالات وتفترق في أخرى كثيرة؛ ولكل نوع حِكَمٌ عظيمة، وآثار جليلة، وهي أحكام متّسقة باتّساق بديع محكم يدلّ المتفكّرَ في عظمتها وشمولها وإحاطتها بأحوال المكلفين على القطع بأنّه لا حكم إلا لله تعالى، ويُظهر له بعض آثار اسم الله (الحَكَم)، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ ﴾.

والتفقّه في هذا الباب والتفكّر في معانيه وآثاره من أسباب تحصيل اليقين بالله تعالى.

١. فأحكام الله الشرعية غايةٌ في قيام المصالح ورعايتها، ودرء المفاسد والاحتراز منها، ولا يحصل ذلك إلا لمن اتّبع هدى الله تعالى؛ فامتثل أمره واجتنب نهيه؛ فإنَّ ذلك يفضي به إلى الحال الحسنة والعاقبة الحسنة.

ومن قصّر في اتّباع هدى الله حصل له من السوء في حاله وعاقبته بقدر مخالفته.

٢. والأحكام القدرية غاية في العزة والحِكْمَة واللُّطْف.

٣. والأحكام الجزائية دائرة بين العدل والإحسان.

ولا تخلو حالة من أحوال الإنسان من تعلّقٍ بهذه الأحكام شاء أم أبى.

فحكم الله محيط بجميع أعمال العباد وآثارهم، وهذه الإحاطة من دلائل وحدانية الله تعالى وعزّته وقهره، وهذا الشمول العظيم يقضي على كلّ حكم سوى حكم الله بالعجز والضعف والبطلان مهما بدا لصاحبه من قوّة ظاهرة في هذه الحياة الدنيا فهو محكوم مقهور.

ومهما حصل من تقصير القضاة في إدراك الأحكام الشرعية والحكم بها، فإنَّ حكم الله محيط بكلّ ذلك، وتحاكم الناس إلى شريعة الله تعالى لا يقتصر على ما يمكن تقديمه من البيّنات عند الخصومات ونحو ذلك مما يحكم به القضاة بما يظهر لهم، بل هو تحاكم شامل لكل ما يُتنازع فيه؛ فلا يضيع حقّ صاحب الحقّ مهما دقّ، ولا يفوت المجرم بجرمه مهما قلّ و﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾.

ولذلك قد يفرّ المجرم بجرمه أو تعطّل الحدود في بقعة ما أو يغيّر المغيّرون بعض أحكام الشريعة لكنّهم جميعاً لا يخرجون عن دائرة الحكم القدري والجزائي.

وكم من شخص اقترف جرماً وفرح بنجاته من حُكَّام الأرض؛ فأصابه من العقوبة في نفسه وماله ما هو أشدّ عليه من عقوبة الجريمة التي اقترفها.

وأحكام التعاملات مع الناس لا يفقهها حقّ الفقه من قصرَ نظرَه على قوانين التحاكم إلى المخلوقين وإن كان حُكمهم بالشريعة في أصل الأمر؛ بل لا بد من الجمع بين هذه الأنواع.

وبهذا تندفع كثير من الإشكالات التي يثيرها بعض المعترضين على تحكيم الشريعة، بزعمهم أنَّ فوات الحقّ الخفيّ ظلم، وبراعة أحد المتخاصمين في الحجة قد يستميل بها بعض حقّ صاحبه، وهذه الاستشكالات فيها غفلة

عن ضمانات الحكم القدري والحكم الجزائي.

وقد نبَّه النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى ذلك كما في الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار».

فمن قُضي له بشيء لا يستحقّه حرمَ عليه أن يأخذه، ومن وقع عليه ظلم ورضي بالله حَكَماً لم يضع عليه شيء من حقّه مهما دقّ، فإنَّ الله لا يظلم مثقال ذرّة.

وإنما الخوف على المظلوم أن يتحوّل إلى ظالم بتسخّطه أو تعدّيه، كما قال ابن مسعود: «**ما يزال المسروق منه يتظنّى حتى يصير أعظم من السارق**». رواه البخاري في "الأدب المفرد".

أي يتّهم الأبرياء تخرّصاً بظنّه.

وأما المظلوم الذي لا يتعدّى ولا يتسخّط حكمَ الله، ولا يتعدّى على عباد الله فهو في ضمان الله تعالى له؛ فيأتيه حقّه **بالحكم القدري أو الجزائي، وبين هذين الحكمين فرق لطيف:**

وهو أن الحكم القَدَري على العبد قد يقع عقوبة أو ابتلاء أو استدراجاً أو تنبيهاً، وأما الحكم الجزائي فمتعلّق بالثواب والعقاب الدنيوي والأخروي، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: فالحكم الجزائي ينقسم إلى حكم جزائي شرعي، وحكم جزائي قدري.

إذا تبيّن لك ما تقدّم عرفت سعة معاني اسم الله «الحَكَم» و«الحكيم» الذي له الحكم كلّه بجميع أنواعه؛ فهو تعالى الحكَم بجميع هذه الاعتبارات، وإليه يرجع الأمر كلّه؛ فيحكم فيه بما شاء، لا يخرج عن حكمه شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ **يشمل هذه الأنواع الثلاثة**: **الحكم الشرعي** المبيّن للهدى، و**الحكم القدري**، و**الحكم الجزائي**.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ حصر مؤكد، يتبيّن للمتفكّر فيه أنَّه لا حكم لأحد دون الله تعالى، وأن الذين يُدعون من دون الله لا يَقضونَ بشيء، ولا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا حياة ولا نشوراً، فكيف يُطاعون في معصية الله تعالى الذي له الحكم؟!!

وكيف يُعبدون من دون الله وقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

فمن تحقّق بهذه الحقيقة أسلم قلبه لله، وأخلص له الدين، لما قام في قلبه من اليقين بأن الحكم لله وحده، وأنَّ القضاء والقدر بيده وحده جلَّ وعلا، والثواب والعقاب من عنده؛ فكذلك الأمر والنهي يجب أن لا يكونا إلا من عنده.

وهذا الحكم عامّ في كبير الأمور وصغيرها، فكلّ معصية يُعصى الله بها هي خروج عن عبادته الواجبة، وفسق يستحقّ صاحبه العقاب عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ولذلك عظمت خشية المؤمنين لربّهم جلّ وعلا، واستعاذوا به من الوقوع في الإثم كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم» متفق عليه من حديث الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

والمتأمّل في هذه الأحكام الإلهية وسعتها وعظمة آثارها واتّساقها اتّساقاً بديعاً محكماً يدرك أن الدين قائم على إخلاص العبادة لله تعالى وحده، كما قال أبو العالية الرياحي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قال: «**أسّس الدّين على الإخلاص لله وحده لا شريك له**». رواه ابن جرير.

وهذه الكلمة العظيمة من هذا التابعيّ الجليل دليل على فقهه وإدراكه لمقصد الآية وحسن تنبيهه لذلك.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الإشارة بلفظ الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه دلالة على الرفعة والسموّ العالي لهذا الدين، الذي يتعالى عن كل ما أريد به مضاهاته.

والقيّم شامل لثلاثة معانٍ:

أحدها: المستقيم الذي لا عوج فيه ولا اختلاف ولا تناقض.

والثاني: القوّام برعاية المصالح وتحقيقها.

والثالث: المهيمن على شؤون العباد وأعمالهم وأحوالهم؛ فلكلّ عمل حكم، ولكل حال سبب وجزاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي في غفلة عن تفرّد الله تعالى بالحكم، وعن قيوميّة هذا الدين.

والوصف بعدم العلم في هذا الموضع وصف ذمّ يستدعي التفكّر في أسبابه وآثاره.

فهو جهل مذموم ناشئ عن الغفلة والإعراض، والإمعان في التعامي عن هدى الله تعالى، والجراءة على معصيته والاسترسال في الغيّ حتى طمست البصيرة، وأظلم القلب، واستحكم الجهل؛ فهم لا يعلمون.

وهذا الوصف الذميم يقذف في نفس المؤمن الرهبة من أن يوصم بشيء منه فيكون من الجاهلين، فيحمله ذلك على أن ينأى بنفسه عن التخلق بأخلاق الجاهلين، والعمل بأعمالهم، والتشبّه بأحوالهم.

ولذلك لمّا دُعي يوسف عليه السلام إلى الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾.





الباب الثامن: تنمية ملكة التفسير

من أعظم ما ينبغي لطالب علم التفسير أن يعتني به تنمية مَلَكَته التفسيرية، والملَكة صفة تفيد حسن المعرفة بالعلم الذي يُعنى به الطالب والمهارة في معرفة مسائله وتحريرها والإبانة عنها.

فالملكة التفسيرية قائمة على أصلين:

الأصل الأول: المعرفة الحسنة بأصول التفسير وتحرير مسائله، فيعرف المصادر التي يرجع إليها في دراسة كلّ مسألة، ومراتب المفسّرين وتفاسيرهم، ومصادر تحصيل الأقوال وأدلة المسائل، ومعرفة مواضع الإجماع والخلاف، والقدرة على تحرير محلّ النزاع، ونضج المعرفة بطرق الجمع والترجيح والنقد والإعلال.

وهذا هو الجانب العلمي الذي تستند عليه الملكة التفسيرية، وهو مما يتفاوت فيه العلماء وطلاب العلم، ولذلك ينبغي لطالب علم التفسير أن يُعنى بتقوية هذا الأصل لديه، شيئاً فشيئاً على مرّ الأيام والليالي، وأن تكون لديه نهمة في علم التفسير تعينه على إحسان تحصيل هذا الأصل وتقريب مدّته.

والأصل الثاني: المهارة في معرفة علل التفسير والجواب عن المشكل وحسن البيان عن معاني القرآن.

والمهارة في العمل أداؤه بإتقان من غير كلفة ولا تردد.

وهذه المهارة لا تحصل لمن قصّر تقصيراً مخلاً في تحصيل الأصل الأول.

فمتى حصلت المهارة لطالب العلم في عامّة دروس التفسير فهو صاحب مَلَكة حسنة في التفسير، وهذه الملكة هي لبّ التحصيل العلمي وثمرته العلمية، وهي معيار مهمّ لقياس جودة المنهج التعليمي الذي سار عليه الطالب.

والعناية بأساليب التفسير وكتابة الرسائل التفسيرية من أفضل ما يعين على تنمية ملكة التفسير لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أن الطالب عند كتابته لرسالة تفسيرية يجد حاجته ماسّة لتحرير مسائله وحسن الإبانة عن المعاني فيقوده ذلك إلى الاجتهاد في دراسة مسائل التفسير وتحريرها والإجابة على ما قد يثار من الأسئلة في موضوع درسه، واعتياد هذا الأمر يعين الطالب على التمكن من دراسة مسائل التفسير، وحسن المعرفة بمصادر الأقوال ومراتب التفاسير، وأنواع المراجع التي يحتاجها، إلى أن تحصل له خبرة حسنة في علم التفسير.

والسبب الثاني: أن كتابته للرسائل التفسيرية تعرّفه بالأساليب التي يحسنها، ويفتح له فيها؛ فيجتهد فيما فتح له فيه، ويكثر من الكتابة فيه إلى أن يجد من نفسه مهارة في كتابة الرسائل التفسيرية بالأساليب التي يحسنها.

وكلما وجد عسراً في بعض مراحل كتابته لرسالته التفسيرية اجتهد في معرفة سببه وعلاجه ومرَّن نفسه حتى تتحقق له المهارة ويذهب عنه ما يجد من المشقة والعسر.

والسبب الثالث: أن مداومة طالب علم التفسير على كتابة الرسائل التفسيرية ترسّخ فقه المسائل التي كتبها في نفسه؛ وتنمّي بناءه العلمي في التفسير، وتثري أصوله العلمية، وتعينه على الدعوة إلى الله تعالى وبيان هدى القرآن للناس بما تعلم من التفسير، وما أحسن من الأساليب.

وإذا رزق طالب علم التفسير الصدق والإخلاص في كتابة رسائله التفسيرية رُجي أن يبارك الله له في علمه، وأن ينفع به، وأن يزيده الله علماً نافعاً مباركاً، وأن يذلل له ما يجد من صعوبات في طلب العلم.

فكتابة الرسائل التفسيرية وإلقاء الكلمات التفسيرية من أعظم أنواع الدعوة إلى الله تعالى، وهي من شكر طالب العلم لربّه على ما علّمه وفهّمه، ومن شكر نعمة الله زاده الله من فضله، وشكر له عمله، وبارك له فيه.

ولذلك فإنَّ العناية بأساليب التفسير من أهمّ ما ينبغي أن يجتهد فيه طالب علم التفسير.

وسنتناول في هذا الباب بيان محددات الأسلوب الذي ينبغي أن يجتهد طالب علم التفسير في الكتابة فيه، وبيان طريقة تحسين كتابة الرسائل التفسيرية.

محددات الأسلوب:

إذا أراد المفسّر أن يلقي كلمة تفسيرية أو يكتب رسالة تفسيرية فإن اختيار الأسلوب المناسب يعتمد على ثلاثة محدّدات:

المحدد الأول: ما يجيده المفسّر من العلوم والمهارات، فإنّ انطلاق المتكلّم مما يجيده أقوى وأبلغ من تكلّفه ما لا يحسن، فمن كان متبحّراً في علم من العلوم فإن الأنفع لمن يستمع إليه أن يفيدهم من علمه الذي تمكّن فيه ورسخت فيه قدمه؛ فيكون اختياره للأسلوب الموافق لذلك العلم أجمل به وأنفع، وكذلك يقال في المهارات؛ فمن كان ذا مهارة معيّنة في الكتابة أو الإلقاء فإن عنايته بما فتح له فيه أولى به من تكلّف ما لا يحسن.

فمن الناس من يفتح له في الكتابة؛ فيكون لكتاباته أثر على من يقرأ له، لكنّه إذا تكلّم لم يكن لكلامه ذلك الأثر، لضعف أسلوبه في الحديث، وكثرة تردده وتلعثمه، واضطراب صوته؛ ومن الناس من يكون على عكس ذلك؛ فإذا تكلّم أخذ بالأسماع، واسترعى الانتباه، وشدّ الحاضرين إليه؛ فكان لكلامه في نفوسهم أثراً بالغاً، ولحديثه قبولاً، ولحضوره بهجة.

ومنهم من يفتح له في الأمرين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

والمقصود أن من فتح له في علم أو مهارة فإن من شكر ما أنعم الله به عليه أن يستعمله في الدعوة إلى الله تعالى، وتعليم العلم النافع، وبيان الهدى للناس.

وإذا وجد في نفسه ضعفاً في مهارة يحتاج إليها أو علم يحتاج إليه في دعوته وتبليغه؛ فينبغي أن يتعلّم ذلك العلم، ويتمرّن على تلك المهارة

حتى يتقنها أو يكون أداؤه فيها مقبولاً على الحدّ الأدنى.

المحدد الثاني: ما يناسب حال المتلقّين، فإنّ المقصود من الحديث حصول الفائدة، وانتفاع المتلقين بما يلقى إليهم من المادة العلمية؛ وتحديث الناس بما يعسر عليهم فهمه، أو تنفر منه طباعهم، أو بما لا عناية لهم به ليس من الحكمة في شيء.

فلذلك ينبغي للمفسّر إذا حدّث قوماً أن يختار الأسلوب الأقرب إلى أفهامهم، والأحظى بقبولهم وإقبالهم، والأرجى لانتفاعهم.

فمخاطبة طالب العلم الذي يريد أن يتعلّم التفسير على وجهه فيبيّن له مواضع الإجماع والخلاف والمسائل المتعلّقة بالآيات وطرق تحريرها وتمييز الأقوال الصحيحة من الضعيفة، ونحو ذلك من المعارف والأدوات العلمية التي يحتاجها طالب العلم؛ يستدعي من المتكلّم أن يختار له الأسلوب الأنفع لإلقاء تلك المادة العلمية.

ومخاطبة العامّة الذين غايتهم التعرّف على خلاصة بيان الهدى الذي تضمّنته تلك الآيات ينبغي أن يختار له الأسلوب الأنسب لهم.

ومن تعسّر عليه أن يحدّث العامّة بما يناسبهم لغلبة اللغة العلمية العالية في خطابه؛ فليوجّه خطابه إلى نوع من المتلقّين يكون أسلوبه قريباً إلى أذواقهم، لذيذا في أسماعهم، محبوباً لديهم، عزيزاً عليهم، وإن لم يعرف الآخرون له قدره ونفعه، ولم يستلذّوه للعوائق الحائلة دون فهمه على وجهه، واستجلاء حسنه وفائدته.

فالمتبحّر في علوم اللغة -على سبيل المثال- قد يشقّ عليه الانسلاخ من اللغة العالية في خطابه، وكذلك الذي غلبت عليه محاجّة قوم من

أهل الضلال لهم اصطلاحات خاصة، وعبارات معقّدة، وأفهام غريبة على العامة؛ إذا أراد الحديث بما يحسنه شقّ عليه التخلّص من تأثير تلك العبارات والاصطلاحات.

فمن كان كذلك فإمّا أن يروّض نفسه ويعوّدها على أن يخاطب العامّة بالأسلوب الذي يناسبهم، ويخاطب الخاصة بما يناسبهم، وإمّا أن يختار لحديثه النوع الأنسب من المتلقّين، ويتخصص في ذلك.

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله» رواه البخاري في صحيحه معلقا، وبوّب عليه: (باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا).

وذلك أن تحديث الناس بما يشتبه عليهم علمه، ويعسر عليهم فهمه؛ من الفتنة لهم؛ كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة» رواه مسلم.

وقال عروة بن الزبير: «**ما حدثت أحدا بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالا عليه**» رواه ابن عبد البرّ في جامع بيان العلم وفضله.

وقال أبو قلابة الجرمي - تلميذ ابن عباس - : «**لا تحدث بحديثٍ من لا يعرفه؛ فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه**» رواه ابن عبد البر.

المحدد الثالث: المقام؛ فإنّ لكل مقام مقالاً، وكل مناسبة اقتضت الحديث أو الكتابة في التفسير لها أثرها في اختيار الأسلوب الأليق بها؛ فمقام التدريس وتقريب المسائل العلمية وبيانها لطلاب العلم أليق به أسلوب التقرير العلمي.

ومقام التعريف بالفوائد والأحكام التي تضمّنتها الآيات أليق به الأسلوب الاستنتاجي.

ومقام الوعظ والتذكير به وإرشاد الناس إلى هدايات القرآن وتقريبها لهم أليق به الأسلوب الوعظي في الغالب.

والمقام الذي تثار فيه الشّبه وتروّج فيه الأغاليط ينبغي عليه أسلوب الحجاج والرد.

وهكذا في سائر المقامات؛ يختار المتحدّث الأسلوب الأليق بذلك المقام.

وقد تقتضي بعض المقامات التنويع بين الأساليب؛ والتنويع بينها يتطلب مهارة حسنة من المتحدّث.

التنويع بين الأساليب:

قد يحتاج المفسّر إلى التنويع بين الأساليب، لأسباب متعدّدة يقتضيها المقام وحال المخاطبين، وطبيعة المادّة العلمية التي يلقيها.

وقد ظهر في رسائل بعض الأئمة براعة في التنويع بين تلك الأساليب؛ مما أكسب رسائلهم قوّة في التأثير، وإحساناً لعرض المادّة العلمية، وتوسيعا لدائرة الانتفاع بها، وإذهابا للرّتابة والسآمة.

فمنهم من يعتمد أسلوب التقرير العلمي كأصل له ثمّ ينتقل في مواضع من كلمته أو رسالته إلى الأسلوب الوعظي تارة بقدر مناسب، وينتقل تارة أخرى إلى الأسلوب الاستنتاجي، وهكذا في تنوّع حسن يكون له أثره في انتفاع المتلقّي، وإحسان عرض المادّة بالعلمية بأكثر من وجه، فيكون ذلك أدعى لحسن بيانها، وكثرة بركتها.

وينبغي لطالب العلم أن يمرّن نفسه على مهارة التنويع الحسن بين أساليب التفسير، وأن تكون لديه أهلية حسنة في كلّ أسلوب منها، ولو أن يتجاوز الحدّ الأدنى في كلّ أسلوب، ويكون تركيزه على الأسلوب الذي فتح له فيه فأتقنه وبرع فيه.

التعلّم بالمحاكاة والاتّباع:

التعلم بالمحاكاة والاتّباع من طرق التعلّم العتيقة والنافعة، وقد أرشد الله تعالى إليها آدم عليه السلام، وجعلها سنّة في ذريته؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة، جلوس، فاستمع ما يحيونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله ... » الحديث.

وأرشد الله إليها ابن آدم الأول كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال: «خذوا عني مناسككم».

ولأجل نفع هذه الطريقة ضربت الأمثال، وحكيت القصص التي فيها عبر؛ فإن اللبيب يقتبس من المثل نوراً يمشي به، ويتّخذ من العبرة درساً ينتفع به.

وهي طريقة موافقة لطبيعة الإنسان وما جبل عليه من الملاحظة والتقليد؛ فالصبي أوّل ما يُعلّم الكتابة يكتب له الحرف ويكرر له، ثم يُنقط له رَسْمُ الحرفِ حتى يكتمل له بِوَصْلِ النقط رَسْمُ صورة الحرف، ثمّ يكرر ذلك كثيراً؛ حتى يمكنه أن يكتب الحرف استقلالاً من غير أن يعتمد على تلك النقط، ولا يزال يتعلّم على هذه الطريقة حتى يحسن الكتابة؛ فعماد تعلّمه هو المحاكاة مع الإشراف والتوجيه.

وبهذه الطريقة يتعلم المبتدئون في الصناعات والحرف المهارات الأساسية فيها، حتى إذا أتقنوها أمكنهم أن يتصرّفوا في أدوات تلك المهنة تصرفا ينتفعون به وينفعون غيرهم، ويضيفون إلى تلك المهارات ما يبتكرونه وما يستفيدونه بمعرفة الأشباه والنظائر، ونقل التجربة الصحيحة من مجال إلى مجال، والمزاوجة بين طريقتين أو أكثر؛ ينتج بالجمع بينها نتيجة أفضل وأنفع.

ولكل صنعة رجالها العارفون بها، ومن ذلك العلوم والمهارات العلمية؛ فلكلّ علم أهله المتقدّمون فيه، ولهم أدواتهم العلمية وطرقهم في تحصيله وتبيينه؛ فمن أراد أن يتعلّم علماً من العلوم؛ فلينظر في طريقة الحاذقين به وليترسّمها؛ وليداوم على ذلك حتى يعدّ من أهل ذلك العلم.

وهذا كما يقال في العلوم يقال أيضاً في المهارات على اختلاف أنواعها؛ فمن أراد أن يقوّم لسانه في الحديث ويمهر في الفصاحة وحسن البيان؛ فينبغي له أن يكثر الاستماعَ إلى كلام الفصحاء وأرباب البيان، وأن يجتنب -ما أمكنه- كلام أولي اللحن وضعف الأسلوب؛ لأن اعتياد الأذن على سماع الفصيح من الكلام، يعين على نطق اللسان به.

ومن أراد أن يحسّن أسلوبه في الكتابة ينبغي له أن يحسن اختيار من يقرأ كتبهم من الكتّاب البارعين.

ومن أراد أن يمرّن ذهنه على فهم الدقائق وحل المشكلات وكشف المعضلات فينبغي أن يقرأ كتب من عرفوا بذلك من العلماء المحققين.

وهكذا في كلّ علم من العلوم، ومهارة من المهارات، يجد الطالب فيها أئمّة حاذقين فيستفيد من طريقتهم وينتفع بكتبهم ورسائلهم.

والمقصود أن طريقة التعلم بالمحاكاة والاتباع طريقة نافعة جداً، ولا سيّما في تعلم المهارات، وتختصر على المعلّم كثرة الشرح النظري لأمور قد لا يتصوّرها الطالب ذهنياً كما ينبغي.

فإنّه إذا أقام الأنموذج للطالب، وطلب منه أن يحكيه وعرّفه الطريقة بمثالها أغناه ذلك عن كثير من الشرح والتوضيح، ويبقى على الطالب العناية بجودة الملاحظة وحسن المحاكاة؛ حتى يتفهم الطريقة ويتقنها؛ ثمّ يضيف إليها ما يفتح الله له من جوانب الإحسان والتميّز.

خطوات المحاكاة:

حتى يحسن الطالب التعلّم بهذه الطريقة ويبرع فيها ينبغي له أن يعتني بالخطوات التالية:

١: تأسيس المحاكاة

وذلك بأمرين:

أحدهما: حسن اختيار الأنموذج؛ وهذا مما ينبغي للمعلّم الناصح أن يقدّمه لطلابه؛ وعناية المعلّم باختيار النماذج الحسنة للطلاب تكفيهم هذه المؤونة في أوّل طريقهم في المحاكاة، ثم ليحرص الطالب على أن يحسن الاختيار بعد ذلك.

وقد قيل: (لكل شيء صناعة، وصناعة العقل حسنُ الاختيار).

وهذه المقولة نسبت للخليل بن أحمد، ونسبت لغيره، وهي مقولة صحيحة بليغة.

وقال أبو إسحاق الوطواط (ت:٧١٨هـ): (تصرف الناس في حسن الاختيار معدود من المواهب).

والأمر الآخر: التعرّف على أسلوب الرسالة التي يريد أن يتّبع طريقتها، والأدوات العلمية التي استعملها المؤلف في رسالته.

فإذا أحسن الطالب معرفة هذين الأمرين أمكنه أن يؤسّس للمحاكاة تأسيساً حسنا بإذن الله تعالى.

٢: بناء المحاكاة

إذا قعّد الطالب للمحاكاة قواعدها؛ بقي عليه أن يبني تلك المحاكاة على طريقة المؤلف في استخراج المسائل واستعمال الأدوات العلمية، ويعينه في ذلك حسن الملاحظة، والتفطّن لتصرّف المؤلف في تناول المسائل العلمية وتفنّنه في ترتيبها وعنايته بترتّب بعضها على بعض حتى يصل إلى تحقيق مقصد تلك الرسالة.

وهذه المرحلة هي لبّ عمل المحاكاة؛ فإذا أحسنه الطالب كان ما بعده سهلاً، وهو أمر قد لا يصل الطالب فيه إلى مرتبة الإجادة إلا بكثرة التجريب وطول المران.

٣: تهذيب المحاكاة

إذا أنهى الطالب كتابة مسوّدة الرسالة؛ فإنّه ينبغي له أن يعود إليها بالتهذيب؛ فيصحح الأخطاء، ويلغي ما لا يحسن بقاؤه كالعبارات التي يختصّ بها المؤلف اختصاصاً ظاهراً؛ لأنّ الغرض ليس هو المحاكاة الشكلية، وإنما تحصيل الملكة العلمية في تناول تلك المسائل والتعبير عنها.

وليجتنب كذلك محاكاة العبارات التي يطلقها بعض العلماء بناء على سعة اطلاعهم وكثرة معاناتهم للبحث والقراءة وطول تتبّعهم؛ فيجري منهم إطلاق عبارات بالنفي المطلق لأمور لا يمكن للطالب أن يصل إليها إلا بتتبّع حسن أو إسناد إلى عالم يوثق بإطلاقه لتلك الأحكام؛ مثل حكاية الإجماع أو نفي وجود قول من الأقوال المدّعاة، أو تقرير قاعدة أو ضابط علمي ونحو ذلك مما يطلقه بعض العلماء بناء على سعة اطّلاعهم وطول معاناتهم للبحث والتنقيب في الكتب.

والمقصود أن مرحلة التهذيب مهمّة لتنقية الرسالة من الأخطاء العلمية، والدعاوى العريضة، والتسّرع في تحصيل النتائج قبل تقرير مقدّماتها.

وفيها يحذف الطالب ما لا يحسن بقاؤه مما لا يُحتاج إليه، وقد ذكر أبو الطيّب الوشّاء (ت:٣٢٥هـ) في موشّاه عن الخليل بن أحمد أنه قال: (لا يحسن الاختيار إلا من يعلم ما لا يحتاج إليه من الكلام)ا.هـ.

وهذه العبارة بليغة دقيقة؛ فإنّ الطالب إذا كان يحسن اختيار الجمل ويرتّب أفكار الرسالة حتى يصل إلى النتيجة التي يريد تقريرها بأسلوب بيّن واضح يحتاج إلى استثمار كلّ جملة في رسالته، وبقاء كلام لا يُحتاج إليه يشتت الذهن ويطيل الطريق من غير فائدة.

٤: تحسين المحاكاة

مرحلة تحسين المحاكاة مهمّة لأمرين:

أحدهما: تجويد الرسالة وتحسينها؛ ومعالجة ما قد يظهر عليها من ضعف في الأسلوب.

والأمر الآخر: أن يصل الطالب بتحسين الأسلوب إلى أن يختطّ لنفسه أسلوبا يلائمه ويتميّز به يستفيده بالجمع بين محاسن عدد من النماذج التي أراد محاكاتها.

وقد يكون لدى الطالب موهبة في مجال من المجالات فيجمع بينها وبين محاسن الأنموذج الذي يريد محاكاته فينتج له من ذلك تحسين موهبته وتقوية طريقة بيانه معاني القرآن.

وفقني الله وإياكم لما يحبّ ويرضى



الباب التاسع: خطوات إعداد الرسالة التفسيرية

هذه خطوات مقترحة أرجو أن تعين طلاب علم التفسير على إحسان إعداد الرسائل التفسيرية، وأن تكون رسائلهم وافية بالمطلوب نافعة للقارئ والكاتب بإذن الله تعالى.

الخطوة الأولى: تحديد المقصد من الرسالة

وهي أهمّ مرحلة في إعداد الرسالة لأن وضوح المقصد في ذهن الكاتب يعينه على توظيف مسائل الرسالة وفقراتها وأسلوبها وما يحشده فيها من الأدلة والآثار والأقوال لخدمة هذا المقصد، ويعينه على التركيز وعدم التشتت.

الخطوة الثانية: تحديد نوع المخاطبين

تحديد نوع المخاطبين مهمّ في كتابة الرسائل التفسيرية لأنه يعين الكاتب على اختيار الأسلوب الأنسب لهم ولغة الخطاب الأقرب إليهم؛ ومستوى التفصيل الذي يناسبهم.

فإذا كان الكاتب يكتب لعامّة الناس فيوصى أن يختار الأسلوب الوعظي أو ما هو قريب منه، وأن لا يتوسّع في تفصيلات لا تحتملها أذهانهم، وأن تكون عباراته واضحة سهلة قريبة من أفهامهم.

وإذا كان يكتب لطلاب علم مبتدئين فيكتب ما يناسبهم من تقرير بعض المسائل بأسلوب ميسّر ومشتمل على التحرير العلمي المناسب.

وإذا كان يكتب لمتخصصين في التفسير وعلوم القرآن وطلاب علم معتنين بتفصيل بعض المسائل الخلافية وحل بعض المشكلات وكشف بعض المعضلات فينبغي له أن يفصّل في رسالته تفصيلاً يفي بالغرض الذي كتب من أجله ويناسب من يكتب لهم؛ ويتجاوز الإسهاب في المقدّمات المعروفة لدى أهل الاختصاص، ويكتفي بالإشارة للمهم منها.

الخطوة الثالثة: تحديد الأسلوب

تحديد الأسلوب الذي يريد أن يكتب به المفسّر رسالته مهمّ اختيار المسائل التي يعتني فيها بمزيد تركيز، وبالأدوات العلمية التي تستعمل في الرسالة ونوع المعلومات التي تحشد فيها؛ وهذا له أثره في توافق مبنى الرسالة مع مقصدها، ولا بأس أن ينوّع بين الأساليب في رسالته لكن ينبغي أن يكون تنويعاً متوازناً يثري القارئ ويشبع نهمته ولا يشتت ذهنه.

الخطوة الرابعة: استخراج المسائل التفسيرية من الآية التي يريد تفسيرها

وهذه الخطوة مهمة جداً، ومحلّها مسودة الرسالة، لأنها تعرّف المفسّر بالمسائل التي ينبغي له أن يذكرها ويعنى ببسط الحديث عنها والمسائل التي ينبغي أن يتجاوزها حتى لا تصرفه عن مقصده من الرسالة، وفيها توسيع لمداركه بكثرة الاستنباط والاستخراج وحسن التوظيف، وهذا ما نسمّيه في التقويم بمعيار المواءمة.

ويمكن أن يرجع الطالب إلى درس «استخلاص المسائل التفسيرية من الآيات القرآنية» وهو من دروس دورة «مهارات التفسير».

الخطوة الخامسة: معرفة النظائر

ومعرفة نظائر الآية واستخراج مسائلها نافع جداً في إثراء الرسالة العلمية وتقويتها، ومعين على تحقيق المقصد من الرسالة؛ فقد يحتاج إلى ذكر بعض المسائل المتعلّقة بتلك الآيات، والتفصيل فيها لأثرها في بيان المقصد الكلي للرسالة، أو ترجيح بعض الأقوال على بعض، أو رفع إشكال أو دفع اعتراض.

الخطوة السادسة: اختيار الأنموذج

اختيار الأنموذج المناسب ليحاكيه الطالب مهمّ في المرحلة الأولى من مراحل كتابة الرسائل التفسيرية؛ لأنه يعين الطالب على تقوية رسالته؛ حتى إذا اعتاد الطالب على الكتابة عرف الأسلوب الذي يلائمه؛ فيجتهد فيما فتح له فيه.

فالمحاكاة ينبغي للطالب أن ينظر لها على أنها مرحلة مؤقتة إلى حين وصوله إلى مرتبة إجادة كتابة الرسائل التفسيرية، وأن اختياره للأنموذج لا يعني جموده عليه؛ فقد يكون لدى الطالب من نقاط القوة ما يمكن أن يضيفه على الأنموذج؛ فتزداد رسالته حسناً ونفعاً.

الخطوة السابعة: تحديد عناصر الرسالة

ينبغي للطالب أن يكتب العناصر قبل البدء بكتابة الرسالة لأنها تضبط له خطة السير في تلك الكتابة؛ وليعتن في تلك العناصر بالوضوح والتناسب بين تلك العناصر وحسن ترتيبها وتأديتها للمقصد من الرسالة بهذا التسلسل الذي اختاره.

وهذه العناصر قابلة للإضافة والتحسين وتغيير الترتيب متى دعت الحاجة إلى ذلك؛ فقد ينفتق للطالب عند كتابته للرسالة من المعاني والأفكار ما لم يكن يخطر على باله عند التخطيط لكتابتها.

الخطوة الثامنة: كتابة الرسالة

يبدأ الطالب بعد ذلك بكتابة الرسالة مراعيا حسن الصياغة وجودة التعبير، والعناية بالتحرير العلمي على قدر الحاجة؛ حتى يفرغ من آخر عنصر من عناصر الرسالة.

الخطوة التاسعة: تهذيب الرسالة

وذلك بإعادة النظر فيها وتحسينها وتجويد بعض العبارات، وإضافة بعض الأفكار النافعة التي تضيف للرسالة مزيداً من القيمة العلمية، ويحذف ما يرى فيه تجوزاً وخطأ أو توسّعا غير مناسب في العبارة، أو دعوى لا دليل عليها أملاها عليه انهماكه في معاني الرسالة؛ فيحرص على أن تكون عباراته منضبطة بقواعد الاستدلال، موزونة بميزان العدل من غير إفراط ولا تفريط.

الخطوة العاشرة: المراجعة النهائية

وفيها يعتني الطالب بالتحقق من خلو رسالته من الأخطاء العلمية القادحة، والضعف اللغوي، والأخطاء الكتابية، وغيرها من الأخطاء، ويصلح ما فاته إصلاحه في المراحل السابقة، ويكمل ما حقّه أن يُكمل، وقد يرى الحاجة في بعض المواضع إلى زيادة في التوضيح أو إضافة نقول مهمّة تثري الرسالة في ذلك الموضع، فيضيف ما تحسن إضافته، ويحذف ما يحسن حذفه؛ حتى يصل إلى الصياغة النهائية التي يرضى عنها.

مرحلة العرض

إذا كتب طالب العلم رسالته التفسيرية مراعيا الخطوات السابق ذكرها فهو أدعى لأن تكون رسالته رسالة حسنة متضمّنة لفوائد علمية جديرة بالنشر؛ لكن ينبغي له أن لا يستعجل بنشرها في أوّل الأمر حتى يعرضها على عالم أو طالب علم متمكّن في التفسير وأصوله؛ حتى ينبّهه على ما قد يقع فيه من الأخطاء العلمية، ويشير عليه بما يقوّي الرسالة ويثريها علمياً؛ فيفيده ذلك في إصلاح رسالته واعتمادها للنشر، ويفيده في تلافي تلك الأخطاء فيما يكتب من الرسائل التفسيرية بعد ذلك بإذن الله.

وإذا واصل الطالب كتابة عشر رسائل تفسيرية أو عشرين رسالة بهذه الطريقة فإنّه لا يلبث أن يصل إلى مرتبة إتقان كتابة الرسائل التفسيرية، وهذه المرتبة مهمّة جداً في نشر العلم النافع، وبيان ما أنزل الله للناس في الكتاب من البيّنات والهدى، وتقريبه لهم، ودعوتهم إليه بلسانهم، وبما يناسب أفهامهم.

فإنّ طالب العلم يبقى عليه بعد ذلك أن يزكّي علمه بأن يكتب من المقالات والرسائل ويلقى من الخطب والكلمات الدعوية والدروس العلمية ما ينفع به نفسه وأمّته، ويحصل باجتماع جماعة من طلاب العلم المتقنين على هذا الأمر نهضة علمية مباركة بإذن الله تعالى.

لأنا لو افترضنا تخرّج مائة طالب من هذا البرنامج، وكتب كلّ طالب عشرة رسائل تفسيرية بأسلوب محرر؛ فإنه ينتج من ذلك كتابة ألف رسالة، وهذا قدر حسن مبارك بإذن الله؛ لأن تلك الرسائل يمكن أن يستفاد منها بأوجه شتى؛ فقد تصلح مادة لخطبة جمعة، أو مقالة نافعة، أو مادّة علمية لبرنامج إعلامي، أو سلسلة دروس علمية، أو موضوع في ملتقى علمي على شبكة الانترنت، أو جُمل تبثّ في مواقع التواصل الاجتماعي، وقد يترجم بعضها إلى لغات متعددة، فالرّسالة الواحد قد تكون صالحة لأن تكون مادة علمية لمخرجات كثيرة متنوّعة.

وصايا وإرشادات:

١ . العناية بالتحرير العلمي

ينبغي لطالب علم التفسير أن يعتني غاية العناية بتحرير المسائل التفسيرية بالقدر الذي يتلاءم مع أسلوب الرسالة ونوع المخاطبين؛ ومن الخطأ أن يظن الكاتب أن اختياره للأسلوب الوعظي يعفيه من التحرير العلمي؛ فإن الوعظ بالتفسير يجب أن يكون قائما على أساس علمي صحيح، وبيان ناتج عن تحرير حسن للمعنى.

والمسائل التي يحتاج الكاتب إلى بيانها لا تخلو من حالين:

- إما أن تكون مسائل لا خلاف فيها؛ فينبغي له أن يعتني بحسن بيان تلك المسائل بما يوضّحها ويجلّيها، وقد يحتاج لتحقيق ذلك إلى أن يجوّد عبارته بأسلوب أدبي حسن أو يستشهد ببعض الآثار وأقوال العلماء، أو يعضد قوله بما يجلّي مراده من ضرب مثل أو سَوقِ حكاية، فيقع ذلك في نفس القارئ والسامع موقعاً حسناً، وتصله الرسالة بطريقة أكمل وأجمل.

- وإما أن تكون تلك المسألة من المسائل التي اختلف فيها أهل العلم؛ ففي أسلوب التقرير العلمي يتأكد على الكاتب أن يعتني بتحرير الأقوال في تلك المسألة؛ بحصر الأقوال وترتيبها وحسن العبارة عنها، ونسبتها إلى من قال بها؛ وبيان أدلتهم، وبيان القول الراجح في تلك المسألة بما يَظهر له من إعمال أصول التفسير وقواعد الترجيح التي درسها؛ فإن لم يمكنه الترجيح فلا أقلّ من إحسان حكاية الخلاف في تلك المسألة وبيان الأقوال فيها وذكر الأدلة والاعتراضات بعبارة قريبة من أفهام المتلقين.

وإن كانت الكتابة بأسلوب غير أسلوب التقرير العلمي فينبغي أن يكون التحرير العلمي حاضراً في ذهن الكاتب، وأن يكون انطلاقه في بيان معنى الآية انطلاق المطّلع على أقوال العلماء العارف بأدلتهم وما يحتاج إلى بيانه منها؛ فيذكر من الأقوال ما يناسب الأسلوب الذي يكتب به على أن يكون المقدّم فيها هو القول الراجح، ويمكن أن يكتفي بالقول الراجح ولا يذكر الخلاف؛ لكن ينبغي له عند ذلك أن يحسن تقرير هذا القول الراجح ويحسن التعبير عنه.

٢. حسن اختيار المراجع

المسائل التي يحتاج الكاتب إلى تحرير القول فيها والإفاضة في الحديث عنها على أنواع:

أ: فمنها ما يحتاج فيه إلى التحقق من صحة النقل كالتفسير النبوي وكثير من تفاسير الصحابة والتابعين؛ وفي هذا النوع من المسائل يكون الرجوع لكتب التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد الرزاق و"الدر المنثور" وتفسير ابن كثير والبغوي وغيرها، وفي كثير من الأحيان يحتاج الباحث إلى مراجعة دواوين السنة، وقد يجد فيها ما لا يجده في هذه الكتب على أهميتها.

ومشروع «جمهرة تفاسير السلف» في جمهرة العلوم، يختصر على الباحث شيئاً كثيراً في هذا النوع بإذن الله تعالى.

ب: ومنها مسائل لغوية؛ فينصح الكاتب بالرجوع إلى التفاسير المعتنية بهذا النوع من المسائل كـ"معاني القرآن" للفراء والزجاج والنحاس، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة و"غريب القرآن" لابن قتيبة و"تأويل مشكل القرآن" له وغريب أبي عبيد ونحو هذه الكتب.

وفي كثير من الأحيان يحتاج الباحث إلى مراجعة دواوين اللغة ومن أجلها تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، ومن أجمعها لسان العرب لابن منظور، ومن أحسنها المحكم والمخصص لابن سيده ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس.

ومشروع «جمهرة التفسير اللغوي» في موقع «جمهرة العلوم» يجمع للباحث عامّة أقوال هؤلاء العلماء وغيرهم، وينظر في تفصيل الحديث

عن هذا المشروع: موضوع مقدّمة جمهرة التفسير اللغوي.

ج: **وإذا كان المراد محاولة جمع أقوال المفسرين في الآية وحصره**؛ فينصح بالرجوع إلى تفسير ابن جرير الطبري والمحرر الوجيز لابن عطية، وزاد المسير لابن الجوزي، والنكت والعيون للماوردي، وتفسير الثعلبي، فهذه التفاسير قد حوت عامّة أقوال المفسّرين؛ ولم يفت أصحابها إلى شيء قليل جداً، وإن رجع معها إلى تفسير القرطبي فحسن.

على أن الباحث ينبغي له أن يتنبّه إلى أهمية التحقق من صحة نسبة الأقوال إلى قائليها في بعض هذه التفاسير.

د: **وإذا كان المقصود نقد الأقوال** وتمييز صحيحها من ضعيفها والترجيح بين الأقوال المعتبرة، والتعرف على علل الأقوال الخاطئة، ونحو ذلك فيكون الرجوع إلى تحريرات ابن جرير وابن عطية وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن عاشور وأضواء البيان للشنقيطي، واعتياد الطالب على البحث في كتبهم يعينه على سرعة الوصول إلى مراده، ونسعى في مشروع «جمهرة التفاسير» إلى جمع أقوالهم في كل آية في موضعها، وما زلنا في مراحل العمل لإتمام هذا المشروع الكبير، ونسأل الله تعالى الإعانة والتسديد.

هـ: **وإذا كانت المسألة مسألة عقدية**؛ فيعتني بالرجوع إلى التفاسير التي عُرف أصحابها باتّباع السنّة ونصرتها، والتنبيه على البدع والانحرافات؛ كـ"تفسير ابن جرير"، و"تفسير أبي المظفّر السمعاني"، و"تفسير ابن كثير"، و"أضواء البيان" للشنقيطي، وما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم في التفسير والتنبيه على انحرافات أهل البدع والأهواء.

ومن الخطأ البيّن أن يأخذ الباحث تقرير مسائل الاعتقاد من التفاسير التي سلك أصحابها غير طريقة أهل السنة في تقرير تلك المسائل.

و: وإذا كانت المسألة بلاغية فيرجع إلى تحرير ابن عاشور وإرشاد أبي السعود وكشاف الزمخشري و"روح المعاني" للألوسي وبعض حواشي البيضاوي، ويحتاج مع هذا إلى النظر في بعض كتب البلاغة، وكتب بيان المشكل.

وهكذا في سائر أنواع المسائل التفسيرية؛ يجد الطالب أن طائفة من التفاسير اعتنت بذلك النوع عناية حسنة، وذلك النوع وثيق الصلة بعلم من العلوم له كتبه المرجعية وأئمته المعروفون، وأصولهم في دراسة تلك المسائل.

وهذا التقسيم لتلك الكتب إنما هو على ما يغلب من عناية أصحابها، وليس المقصود منه خلو تلك الكتب من العلوم الأخرى، ولكن لكل علم مصادره وأئمته.

ومداومة الطالب على البحث والكتابة تعينه على بناء ملكة حسنة في انتقاء المصادر، وسرعة الوصول إلى ما يبحث عنه.

٣. العناية بحسن الصياغة وحسن العرض

وهذا له أثر كبير في إيصال الرسالة إلى المتلقّي بطريقة حسنة، وأسلوب واضح، ومؤدّ للمقصد من الرسالة بإذن الله تعالى.

وينبغي أن يلحظ الطالب جوانب الإحسان في الصياغة والعرض، ويحرص على تنميتها مع مداومته على الكتابة حتى يصل فيها إلى مرحلة متقدّمة من الإتقان بإذن الله تعالى.

٤. تجنّب الأخطاء العلمية

قد يبذل الكاتب جهداً كبيراً في تحرير رسالته وإثرائها علمياً ويحسن الصياغة والعرض لكنّه قد يقع في خطأ علمي يفسد عليه ما أحسن فيه، وربما ذهب بثمرة الرسالة.

والخطأ في الرسالة العلمية نظير النجاسة في الثوب الحسن؛ يلفت الأنظار وينفّر منه، ومن العامّة من يطير بالخطأ كلَّ مَطِير.

فيجب على الكاتب أن يتحرّي الصحة فيما يكتب، وأن يجتنب الغرائب التي تستنكر، وإذا ذكر شيئا منها فليعزه إلى مصدره إن كان محتملاً للصحة، وإن تبيّن له ضعفه فليتركه.

وليجتنب الدعاوى العريضة والأحكام المطلقة التي قد يمليها عليها حال الحماسة عند الكتابة واستغراق مسائل البحث لنظره وتأمّله.

ويعينه على السلامة من ذلك أن يضبط كتابته بقواعد الاستدلال الصحيح.

٥. المداومة على الكتابة

«أحبّ العمل إلى الله أدومه وإن قل»، وكان عمل النبي صلى الله عليه وسلم ديمة، والعمل الذي يداوم عليه صاحبه يُبارك له فيه، **ولو أنّ الطالب داوم على كتابة رسالة حسنة كلّ شهر؛ لكتب في سنوات يسيرة عشرات الرسائل، واكتسب بهذه المداومة بركات كثيرة:**

- **منها:** ازدياد علمه وتوسّع اطلاعه وخبرته بالمصادر العلمية.
- **ومنها:** تنمية مهارة التحرير العلمي لديه.

- **ومنها:** تحسين أسلوبه في الكتابة والعرض.

- **ومنها:** إعداد العدّة العلمية للإلقاء الكلمات والدروس والمحاضرات.

إلى غير ذلك من البركات العظيمة التي لو تأمّلت سببها لوجدته المداومة على كتابة رسالة تفسيرية حسنة في كل شهر، وقد يزيد الطالب ما شاء الله أن يزيد إذا بلغ مرحلة النضج العلمي، وهذه الرسائل يمكن أن ينتفع بها وينفع بها بأوجه كثيرة إذا أحسن النظر.

محاذير وتنبيهات:

في ختام هذا الموضوع أود التنبيه على اجتناب ما يلحظ من الأخطاء الشائعة؛ فإن التفطن لها واجتنابها من أسباب إحسان كتابة الرسائل التفسيرية، وعامّة هذه الأخطاء تفهم مما سبق، لكن جمعها في موضع واحد باختصار يعين على ضبطها واستعراضها قبل أن يعتمد الطالب رسالته حتى يجتنب ما يراه من الأخطاء، **ومن هذه الأخطاء:**

١. ضعف العناية بالتحرير العلمي.

٢. ضعف العناية باستخراج المسائل التفسيرية.

٣. غياب المقصد العام.

٤. العشوائية في اختيار التفاسير والمصادر.

٥. النسخ واللصق والتلفيق بين التفاسير.

٦. التوسع في المسائل التي لا تخدم المقصد العام للرسالة.

٧. تقرير مسائل الاعتقاد من تفاسير الأشاعرة والمعتزلة والصوفية.

٨. ضعف الصياغة وركاكة الأسلوب.

٩. اضطراب أفكار الرسالة وتشتيت ذهن القارئ.

١٠. الأخطاء الإملائية.

١١. ضعف العناية بعلامات الترقيم.

١٢. ضعف العناية بإحسان العرض.

أسأل الله تعالى أن يوفقني وإياكم لما يحبّ ويرضى، وأن يقينا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وأن يستعملنا في طاعته، ويمنّ علينا ببركته وأن يدخلنا في رحمة منه وفضل ويهدينا إليه صراطاً مستقيما

وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المراجع

١: **المفضليات**، المفضَّل بن محمَّد بن يحيى الضَّبِّيُّ (ت:١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة.

٢: **العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٣: **الأم** [رواية الربيع بن سليمان المرادي (ت:٢٧٠هـ)]، محمد بن إدريس الشافعي المطَّلبيّ (ت:٢٠٤هـ)، تحقيق: د. رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، المنصورة.

٤: **تفسير القرآن العزيز**، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت:٢١١هـ)، تحقيق: د.مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد.

٥: **فضائل الصحابة**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت:٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مكتبة الرسالة، بيروت.

٦: **صحيح البخاري**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، عناية: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

٧: **خلق أفعال العباد**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، تحقيق: فهد بن سليمان الفهيد، دار أطلس الخضراء.

٨: **الأدب المفرد**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت:٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق.

٩: **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري (ت:٢٦١هـ)، عناية: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.

١٠: **سنن ابن ماجه**، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت:٢٧٣هـ)، تحقيق: د.بشار عواد معروف، دار الغرب، بيروت.

١١: **سنن أبي داود السجستاني**، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت:٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار المنهاج.

١٢: **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث.

١٣: **سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت:٢٧٩هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٤: **السنة**، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (ت:٢٩٤هـ)، تحقيق: د.عبدالله البصيري، دار العاصمة.
١٥: **سنن النسائي الصغرى (المجتبى)**، أحمد بن علي بن شعيب النسائي (ت:٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا.
١٦: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ)، تحقيق: جماعة بإشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة.
١٧: **صحيح ابن خزيمة**، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت:٣١١هـ)، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٨: **كتاب التوحيد**، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري (ت:٣١١هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد، الرياض.
١٩: **الإبانة والتفهيم عن معنى «بسم الله الرحمن الرحيم»**، إبراهيمُ بنُ السَّرِيِّ بنِ سَهْلٍ الزَّجَّاج (ت:٣١١هـ)، تحقيق: د.عبد الفتاح سليم، مكتبة الآداب، القاهرة.
٢٠: **تفسير القرآن**، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت:٣١٨هـ)، تحقيق: د.سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية، السعودية.
٢١: **تفسير القرآن العظيم**، عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي (ت:٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
٢٢: **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف.
٢٣: **معاني القرآن الكريم**، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت:٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى.
٢٤: **صحيح ابن حبان (بترتيب ابن بلبان الفارسي)**، أبو حاتم محمد بن أحمد ابن حبان البستي (ت:٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٥: **الدعاء**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت:٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد سعيد بخاري، دار البشائر، بيروت.

٢٦: **الشريعة**، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (ت:٣٦٠هـ)، تحقيق: د.عبد الله بن عمر الدميجي، مدار الوطن، الرياض.
٢٧: **تهذيب اللغة**، أبو منصورٍ محمد بن أحمد الأزهري (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٢٨: **بحر العلوم**، أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت:٣٧٥هـ)، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، زكريا النوتي، دار الكتب العلمية.
٢٩: **الإبانة الكبرى عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة**، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد ابن بطّة العكبري (ت:٣٨٧هـ)، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، دار الراية، الرياض.
٣٠: **معالم السنن**، أبو سليمان الخطابي: حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي (ت:٣٨٨هـ)، تحقيق: سعد بن نجدت عمر وشعبان العودة، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣١: **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت:٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
٣٢: **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن حمدويه الحاكم النيسابوري (ت:٤٠٥هـ)، تحقيق: سليمان الميمان وأيمن الحنيحن، دار الميمان، الرياض.
٣٣: **شرح أصول اعتقاد أهل السنة**، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (ت:٤١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض.
٣٤: **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، أحمد بن محمد الثعلبي (ت:٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي.
٣٥: **الأسماء والصفات**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة.
٣٦: **سر الفصاحة**، عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت: ٤٦٦هـ)، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٣٧: **أسرار البلاغة**، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت:٤٧١هـ)، عناية: أبي فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

٣٨: **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الجرجاني (ت: ٤٧١هـ)، عناية: أبي فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
٣٩: **تفسير القرآن**، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني (ت:٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض.
٤٠: **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ تقريباً)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت.
٤١: **معالم التنزيل**، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت:٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، الرياض.
٤٢: **أساس البلاغة**، محمود بن عمر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة.
٤٣: **الكشاف عن حقائق التنزيل**، محمود بن عمر الزمخشري (ت:٥٣٨هـ)، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، مكتبة العبيكان.
٤٤: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت:٥٤٦هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية.
٤٥: **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت:٤٥٨هـ)، تحقيق: أحمد أبو العينين، دار الفضيلة.
٤٦: **أشعار الشعراء الستة الجاهليين**، أبو الحجاج يوسف بن سليمان الأعلم الشنتمري (ت:٤٧٦هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٤٧: **متن الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات)**، القاسم بن فيرُّه بن خلف الشاطبي (ت:٥٩٠هـ)، تحقيق: محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني للدراسات القرآنية.
٤٨: **منتهى الطلب من أشعار العرب**، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: د. محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت.
٤٩: **زاد المسير**، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥٠: **استخراج الجدال من القرآن الكريم**، ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب ابن الحنبلي (ت: ٦٣٤هـ)، تحقيق: د.زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق التجارية.
٥١: **بديع القرآن**، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع المصري (ت:٦٥٤هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، دار نهضة مصر، القاهرة.
٥٢: أنموذج جليل في غرائب آي التنزيل، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت:٦٦٦هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، دار عالم الكتب، الرياض.
٥٣: **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: فريق من الباحثين، بعناية: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة.
٥٤: **مجموع الفتاوى**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت:٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
٥٥: **تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد العزيز الخليفة، مكتبة الرشد.
٥٦: **الإيضاح في علوم البلاغة**، الخطيب القزويني: أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر الشافعي (ت: ٧٣٩هـ) تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت.
٥٧: **التبيان في البيان**، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ)، تحقيق: عبد الستار حسين زموط، رسالة دكتوراه، بإشراف: أ.د.كامل الخولي، قسم اللغة العربية، جامعة الأزهر.
٥٨: **الجواب الكافي**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، تحت إشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، السعودية.
٥٩: **بدائع الفوائد**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، تحت إشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، السعودية.
٦٠: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن الجوزي، الرياض.

٦١: **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان،** ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن حسن عبد الحميد الحلبي، دار ابن الجوزي، الدمام.
٦٢: **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،** ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: د.أحمد بن صالح الصمعاني ود.علي بن محمد العجلان، تقديم: الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار الصميعي، الرياض.
٦٣: **الصواعق المرسلة،** ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض.
٦٤: **مدارج السالكين،** ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: ناصر السعوي وعلي القرعاوي وصالح التويجري وخالد الغنيم ومحمد الخضيري، تحقيق: جماعة من أساتذة العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم، دار الصميعي، السعودية.
٦٥: **بدائع الفوائد،** ابن قيّم الجوزية: محمد بن أبي بكر الزُّرعِيُّ الدمشقي (ت:٧٥١هـ)، تحقيق: علي بن محمد العمران، تحت إشراف: بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، السعودية.
٦٦: **جزء في تفسير الباقيات الصالحات،** صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي (ت:٧٦١هـ)، تحقيق: بدر الزمان محمد شفيع النيبالي، مكتبة الأيمان، المدينة المنورة، السعودية.
٦٧: **الآداب الشرعية والمنح المرعية،** محمد بن مفلح بن محمد المقدسي الحنبلي (ت:٧٦٣هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٩: **تفسير القرآن العظيم،** إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي (ت:٧٧٤هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض.
٧٠: **الموافقات،** إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان.
٧١: **مجموع رسائل ابن رجب،** عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ)، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، دار الفاروق، القاهرة.
٧٢: **روائع التفسير،** من كلام الإمام عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ) في التفسير، جمع: طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة، الرياض.

٧٣: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي (ت:٧٩٥هـ)، تحقيق: جماعة من المحققين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، السعودية.
٧٤: **القاموس المحيط**، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٧٥: **النشر في القراءات العشر**، محمد بن محمد ابن الجزري (ت:٨٣٣هـ): تحقيق: محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة.
٧٦: **كفاية الألمعي في آية {يا أرض ابلعي}**، محمد بن محمد ابن الجزري (ت:٨٣٣هـ)، دراسة وتحقيق: نشيد حميد سعيد آل محمود، دار الافاق الجديدة، بيروت.
٧٧: **فتح الباري**، أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢هـ)، تحقيق: نظر الفريابي، دار طيبة، الرياض.
٧٨: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر البقاعي(ت:٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٧٩: **الإكليل في استنباط التنزيل**، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: عامر بن علي العرابي، دار الأندلس الخضراء.
٨٠: **فتح الجليل للعبد الذليل**، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: محمد رفعت زنجير، مؤسسة الريان، بيروت.
٨١: **إرشاد العقل السليم**، أبو السعود محمد العمادي الحنفي (ت:٩٥٠هـ)، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، مكتبة الرياض.
٨٢: **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي (ت:١٢٠٥هـ)، فريق من الباحثين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت.
٨٣: **مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب**، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (ت:١٢٠٦هـ)، تحقيق: صالح بن عبد الرحمن الأطرم ومحمد بن عبدالرزاق الدويش، جامعة الأمام محمد بن سعود، الرياض.
٨٤: **فتح القدير**، محمد بن علي الشوكاني (ت:١٢٥٥هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء.

٨٥: **روح المعاني**، محمود بن عبد الله الألوسي (ت:١٢٧٠هـ)، تحقيق: محمد أحمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي.
٨٦: **دروس البلاغة**، حفني ناصف (ت:١٣٣٨هـ) ومحمد دياب (ت:١٣٣٩هـ)، ومصطفى طموم (ت: ١٣٥٤هـ)، وسلطان محمد، عني به: أحمد السنوسي أحمد، دار ابن حزم، بيروت.
٨٧: **تيسير الكريم الرحمن**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تحقيق: د.عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة.
٨٨: **آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيى المُعلمي (ت:١٣٨٦هـ)**، أشرف على تحقيقه: علي العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
٨٩: **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، تحقيق: جماعة من الباحثين بإشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
٩٠: **العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير**، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.
٩١: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٩٢: **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور (ت:١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس.
٩٣: **تفسير آية الكرسي**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت:١٤٢١هـ)، دار المدائن العلمية، القاهرة.
٩٤: **شرح العقيدة الواسطية**، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: ١٤٢١هـ)، تحقيق: سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض.
٩٥: **ديوان كعب ين زهير**، أبو المضرَّب كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني (ت: ٢٤هـ)، تحقيق : د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
٩٦: **ديوان امرِئ القيس**، امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت: ٨٠ ق.هـ)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت.
٩٧: **شرح ثلاثة الأصول وأدلتها**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.

٩٨: **بيان فضل القرآن**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
٩٩: **أعمال القلوب**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٠٠: **طرق التفسير**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٠١: **تاريخ علم التفسير**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.
١٠٢: **تفسير سورة الفاتحة**، عبد العزيز بن داخل المطيري، مؤسسة آفاق التيسير، الرياض.

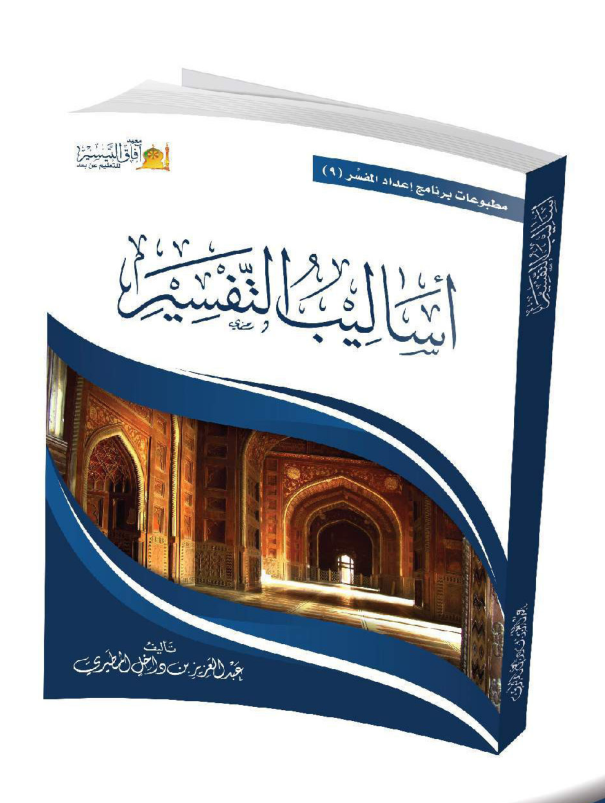
الفهرس










مطبوعات برنامج إعداد المفسّر (٩)
أساليب التفسير
تأليف
عبد العزيز بن داخل المطيري


معهد
آفاق التيسير
للتعليم عن بعد